رواية

عقد الموت

فكري محمد الخالد

منشورات الواحة

عقد الموت

فكري محمد الخالد

© جميع الحقوق محفوظة لدى منشورات الواحة.
عنوان الكتيب: عقد الموت.
تأليف: فكري محمد الخالد.
نوع الكتاب: رواية.
الناشر الإلكتروني: منشورات الواحة.
الرقم الدولي **EBIN**: 38-035-1-240321

لمتابعة جديد منشورات الواحة:

واتس: 00967779284583

إنستقرام: **manshurat_alwaha** تيليجرام: 9dWSGDis.gd/

لمتابعة الكاتب على موقع إكس – تويتر سابقا: **fikri_al_khaled**

يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم: (#عقد_الموت).

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منشورات الواحة

منشورات الواحة

الإهداء

لَطالما آمنت أن القَيود لا بُد أن تكسر، وأن الجَهلَ لا يَجب أن يَعيش في داخلنا إطلاقًا، وأن الخُطوة الأولى تَعني بدايةَ تحرر نفسٍ من عبوديةٍ لا تُطاق، وانْحلالُ عقدٍ إن فُكَ لا يعود.

إلى من أُلبسنَ عقدًا من عارٍ، وجهل، وموتٍ، وخيبة تُعيق فيهنَّ البدء أبدا، إلى من عرفنَ المعنى يَقينًا، والصوت آمينًا، وصلينَ لأجلِ غدٍ أكثرَ إشراقًا وإيناسًا، وحملن جُرحًا غائرًا حتى وإن جَفَّ لا يُبرى.

أُهديكن جميعًا هذا العَمل،

وأهديهِ لنا أيضًا؛ لأننا مسؤولون عن رص خرز هذا العقد، وتحويله إلى قيدٍ بطريقةٍ أو بأخرى.

مدخل

في مجتمعنا تضطهد أحلام الكثير من الفتيات وتُقتل آمالهن لتحقيقها، صبية يافعة لم تبلغ من سن الرشد بعد أن تتقيد بقيد الكلمات وتُجر لمصيرٍ لا تنوي الوقوع فيه إلَّا بالإجبار، حتى ينتهي بها المطاف إلى نهايةٍ لا تستحقها.

حاولتُ مليًا أن أجسد معاناة من هم أشباه ضحايا قضية "عقد الموت".

أتمنى أن أكون نجحت في ذلك؛ فإن نجحت فمن الله وإن قصرت فمن نفسي.

في يومِ الاثنين أشرقت أنوارُ الهدى، وابتهجت السماءُ سعادةً ورِضا، وتفتحت بساتين الأرضِ روضًا من جِنان السكينةِ والراحة، وآمالاً واعِدة؛ لتُتوَّج أماني طفلة حالِمة طموحة، مُتأملة بحياةٍ مليئة بالتفاؤلِ والشغف، مُختِمة ثلاثين ربيعًا ونورًا وتاجًا من الوقار تُكرِّم بهِ أبويها، عادت إلى بيتها والسعادة تغمرُ روحها وفرحة تُشاطر بهِا الأرض لتشاركها عُرسًا تزفُ بهِ أميرةً إلى السماء، ولتُخبر والديها بإنجازها الذي تحلمُ بهِ منذُ أعوام، الأرضُ لم تسعها، ولا السماءُ قادرة على أن تحتضنها من هول فرحتها، ولشدة تلك السعادة التي تحتويها، كانت في ذلك اليوم في مُنتَهى السعادة والسرور، وسكينة يهدأ بها القلبَ، حتى امتلأ قلبها سرورًا وبهجةً وفخرًا وعظمةً بنفسها، كُلّ ذلك لم يكُنّ إلَّا تَعْبيرًا عن الابْتِهاج في ختمها (القرآن الكريم)، الذي سوف تُهدي نور هذا النجاح والدها.

وكانت كُل أفكارها في ذلك اليوم تدور في رأسها دوران السعيد المُغتبِط، متسائلة كيف ستقضي بقية حياتها وكيف ستحقق أحلامها وتبني اسمها ليكون ساطعًا برَّاقًا، ضلَّت تُخطط وترسم مسار دربها الذي لم تقطع نصف أمياله بعد، ولكِنّ حدث ما لم يكُن بالحسبان ولا توقع من التوقعات التي

كانت تُخالِجها في نفسها، أخبرها والدها بعد وصولها من حلقة القرآن-قبل أن تَزُفَّ إليه البشارة- بخبرٍ كان أشبه بالصاعقة انصَّبت على النصفِ من قلبها لا رأسها، وخارت كُل قوةٍ كانت تمتلكها قبل هذه اللحظة، حتى سعادتها انتشلت منها كمن يُلبِس أرملةً ثوبًا أسودًا يُثبت بهِ عزاءها على نفسها وعلى أحلامها.

: ابنتي ياسمين تعالي لأخبركِ شيئًا.. لقد أتى شابٌ لخطبتكِ اليوم وهو مهذبٌ وخلوق لا يعيبه شيء، وأنا وافقتُ عليه وتمت خطبتك منه.

تأتي بعض الكلمات مُلاءمةً وسهلة، ولكنها تحمل بين طياتها الكثير من الآلام، ما يضيق به صدر.

_ طرقت هذه الكلمات مسامعي وكأنها سهمٌ أصاب لذّة سعادتي في جوف كبدي، حتى بدأت دقاتُ قلبي تتسارع والخوف يتسللُ مِني كالنهر المُنهمر من داخلي، إلا أني تماسكتُ قليلاً ريثما هدأت، وقلتُ لهُ:

لكنِّي لا أريد يا أبي، ما زلتُ في سنٍ مبكر...

أريد أن أكمل دراستي ولا أريد شيئًا يلهيني عن مستقبلي، ولا شي يقتل أهدافي ولا أنْ يغطي ثقب الأمل الذي يعيش في داخلي بجدارٍ سميك لا أقدر على إزاحته.

_ صمت ولم يتفوه بأي حرف، أخذ ينظر إليَّ نظرةً جرِزة، يقطبُ بها حاجبيهِ.

أردفت متسائلة.:

ماذا عن حلمي؟

ماذا عن تلك الأمنيات التي كنت أتمناها.؟

_ ذهب أبي وتركني أحادثُ نفسي بتساؤلات الحيرةِ والضياع، أريدهُ مرشدًا يدُّلني في شتاتي ولكنهُ لم يجب عليّ، لم تكن الجدران ساعتها إلَّا كـ إنسانٍ أبكم يشعرُ بك؛ لكنهُ لا يستطيع أنْ يُخفف عنكَ صراعاتك التي تعيشها إلَّا بملامحهِ المُشفقة عليك كتهويدة أسى منهُ إليك ليشعُرك أنهُ دائمًا معك.

كانت كلماتُ أبي كسهامٍ غُرِزتْ في وسط أحلامي، قَطَّعَتْ حبلُ أفكاري ومزَّقتهُ أشلاءً حتى أصبحت قوتًا للكلاب اللاهثة، يسيلُ دم الأمنياتِ منها سيلاً؛ ليجري مجراهُ ويركُدّ في أرضه، لقد كانت ليلة وكُل الليالي من بعدها مأساوية للغاية، أصبحت حياتي بعد تلك اللحظة لا تُطاق وكأن الحياة تُريد الانتقام مني على ما بذلتهُ من سعادة وتخطٍ لمصاعبها بابتسامتي، كانت طاغية عليّ بثقلها فكانت تلك اللحظة وكأنها الحلقة الأخيرة من سلسلة حياتي البهية،

شعرتُ لوهلة وكأن أحدًا ما ضرب أعصابي الحسية ولم أعد أشعرُ بأيِّ شيء.

ديجورٌ يُخيمُ عليَّ من جميع النواحي، عيناىَ تؤلمانني ويُخيمُ عليهما الضباب الكثيف، بل إن الدمُوع تنسابُ من جفني أطلقت سراحها لتروي وجنتاي بعذابِها وكأنَّها جيشٌ شنَ هجومهُ عليها.

ارتميتُ أرضًا باكيةً مُنتحبه، أئن أنين الثُكل في مضجعي؟، أريدُ أنّ أحتضن شيئًا وأنْ يربت عليّ أحدهم، ويخبرني بأنَّهُ مجرد حلم!

لم أجد سوى قاع غرفتي وجدرانها تستقبلني وتقبل أدمُعي وتنحبني بكل لطف تخبئها، وكأنَّها تقول لي لا تيأسي لا تكوني ضعيفة لايخيم الحزن عليكِ، يجب أنْ لا تنكسري، واجهي واقعكِ بكُلِّ قوة وانتصري على هذهِ الأغلال، وأزيحيها من على عاتقيكِ.

بتُ تلك الليلة في حزنٍ أرى نجومِ الليل وأشعر بسكونه منفردةً أشكو همي وحُزني إلى الله،

ودموع العين مُعلّقة مُتحجرة لا تفيض ولا تغيض، واضعة رأسي على جدران غرفتي أخاطب نفسي:

آه لو يعلم أبي..

كم أحب وأطمح وأتمنى أنّ أكون طبيبة، وأشعر بالفخر بمجرد أنه حلم فكيف لو تحقق؟

الأحلام كومةٌ من السُحب إذا لم تتعارك مع المشاكل لن تُمطر انتصارًا لزرعه في أرضنا البائسة.

لم أكُنّ أدرك بأنهُ على مقدار الفرح والفخر يأتي الحزن والأسى، وبمقدار الشغف يأتي اليأس والإحباط. ألمَ بي التعب وعبث البكاء بجفني حتى أصبحت عيناي مُخضلتان من البكاء وذهبتُ في سُباتٍ عميق من النوم دون أنّ أشعر، حتى إنبثق نور الفجر فاستفاق كُلُّ من في البيتِ على صوتِ الآذان وماهي إلا دقائق قليلة حتى أشرقت شمسُ الصباح في مدينتي وكشفت اللثامَ على ملامحها البيضاءُ الحسناء في سُحبِها المُتراصة كالقطن الناعم يحتويها النقاء، وسماؤها تشتدُ حمرتها الدافئة؛ لتبخر الضباب النائم على شرفة جِبالها وتغدقنا برائحة قطراتِ الندى، زكية الروائحِ العنبرية، وتنسابُ منها ترنيمةٌ هادئة مليئة بالروقان والاسترخاء، تلكَ الترنيماتِ الشجيةِ لأصواتِ العصافيرِ من بينِ أغصان الأعشاب، وتندفعُ كتيبةٌ أقوى من خيوطِ الشمس الذهبية وعلى أشجارٍ باسقةٍ، ناعمة الملمسِ كالحرير، فاقعة الألوانِ

تسرُ الناظرينَ وكـ إحمرارِ التوليب، وبياضِ الياسمين، وإخضرارِ العشبِ والأوراق؛

لننعم من إنزلاقها المتراقص على وارفةِ المنازل بغمرة أرضٍ مخمليةِ الرداء الأخضر، فتغمرُ الطرقاتُ كلها لمعان، وينعمُ الجميع بيومٍ جميلٍ مُشرق إلَّا أنا وأحلامي أسدلَ الحزنُ على قلبينا وأغشتهما ظُلمةً وحسرة، وعللٌ تهدم أرواحنا وتسلِب مِنا فرحة الحياة وبراءتنا الحالمة بالشغف والأمل.

بزغتْ الشمسُ أضواؤها في صُبحيةِ يومِ الثلاثاء، وعلت أصواتُ العصافيرِ تُغرِّدُ لحنًا حزينًا تُشدي بهِ مصابها حُزنًا وكدرًا على أحزان من تشاركهم إشراق الصباحات الساحِرة التي تشبهُ أمواج البحرِ في زرّقته، وهدوئهِ الفاتِن ونسماتهِ الباردة وسكينتهِ المُلهِمة.

نهضت ياسمين من على سريرها على أملٍ أن يُغيّر والدها رأيهُ ويرقّ قلبهُ لها ويحنو عليها ويتراجعَ عمَّا أقدم عليها من خطوة، طرقت باب غُرفة أباها بلُطف فأذن لها بالدخول، دخلت ودقاتُ قلبها لا تكفُ عن الإرتجاف أبدًا كأنها أجراسُ كنائسٍ بدأت صلاتها.

: بإرتجافة قلب ودمعة عين وسطوة تفكير عميق ناديتهُ قائلة:

أبي أريدُ أن أتحدث معك، أنا فتاةٌ حالِمة وطموحة مثلما تعرفني بعاديتي المُنفردة، وأريدُ أن أكمل مرحلة الثانوية بمعدلٍ يُشرفني ويشرفك ولي أحلام أودُّ تحقيقها وأسعى جاهِدة لأنّ أصل إليها، ولا أريدُ أنّ أتزوجَ بهذا العُمر،

أريدُ فقط أنّ تفهمني يا أبتي وأنّ تنظُر لأحلامي ومستقبلي وألا تُدمرهُ بموافقتك.

: كيف لا تريدين وأنا قد وافقتُ عليه وأعطيت الناس كلمةً ووعدًا بأني قبلت بهم ولا يمكنني الرجوع عن هذه الكلمة مهما بدت لكِ الكلمة.

: وأنا يا أبي، ماذا عني وعن آمالٍ رسمتُها لنفسي وأهدافٍ خططتُها لأبني بها قصور أحلامي، وأنا قُرة عينيك هل تُباع أحلامي خلسة، وأجُر إلى الجحيم، وتُجبرني على الزواج لأنك تفوهت بكلمة فقط ولا يمكنك الرجوع عنها، أيمكنك إنقاض عهدٍ من عمري بكلمة؟، وأنا منذ نعومة أظافري وأنا أطمحُ بهذا الحلم، وكنت تعدني، بأنَّك ستدعمني وأنَّك ستساندني، وستبقى معي إلى أن أصل إلى حلمي، أليس هذا كلامك يا أبي؟!

ألا أستحق أن أعيش وتموت هذه الكلمة؟؟!، أو أن حياة قُرة عينيك يا أبي تقومُ على كلمة.

أليس هذا وعدك لي منذ الطفولة؟!

أبهذه السهولة يخلف الآباء وعودهم؟!

أيرضيك أن أحلام ابنتك وطموحاتها وأهدافها، تنتهي بكلمة؟

: أتركي كل هذه الخزعبلات أنتِ كل ما تقدم لكِ شابٌ لخطبتك تهمين بعزيمة مفرطة بالرفض، إلى متى ستبقين على هذا الحال، المرأة ليس لها إلا بيت زوجها، أنا عند كلمتي ولن أتراجع، خطبتكِ ستكون بعد شهرٍ من الآن إنتهى نقاشنا ولن أعود لفتحهِ مرة أخرى.

هنالك نوعان نادران من الكلمات ، كلماتٌ مَخزونٌ فيها شعورٌ هائلٌ من الحزن والأسى، وكلمات كنزُ الصفا والنقاء والسعادة، ولكن دائمًا مخزون الكلمة الملئية بالحُزن يطغى وقعهُ في النفس ولو قُدِّرَ لها أن تنفجر لَكانت شيئًا يُغرق هذا العالم.

أدار ظهرهُ عني وذهب.

ناديتهُ بكُلِّ رجاءٍ: أبي أبي!!

أبتاااااه هل كلمتك أثمن من حياة ابنتك؟!

لم يجب عليّ وذهب في حال سبيلهِ ماضيًا ومدبرًا إلى الخارج دون رحمةٍ ولاشفقة رحيم، وبقلبٍ قاسٍ أَلْقَىٰ علي

هذه الألفاظ من دون حنانٍ أو عطف، ورضّ باب المَثْوى وارتجّت جدرانها شعرت، وكأن السطح سيهوي بعد دقائق!

آه ماذا عساي أن أفعل..؟

أخذت أتساءل، هل حقًا الآباء هم من يمنحون أبناءهم الرأفة والرحمة والحب والحنان والعطف والأمان والاطمئنان ويحتونهم..؟

أين الرحمة والحنان..؟

أينها؟

لم أجدها ولو على هيئة أثر في أبي

أم أنَّ حب المال قد بلغ في الآباء أن يعظمون أصحابه ويمنحوهم بناتهم؛ لأنهم ذوي مالٍ وهم على تَوَهُّم بأن أصحاب الأموال هم أحق الناس ببناتهم عن غيرهم.

هل حب المال قد بلغ بالآباء لدرجة أن يمنحوا بناتهم لأربابه؟! لكن أبي لم يكن من هذا الصنف أم أنه لا يرى لأبنته مصلحةً غير الزواج ولو على حساب مستقبلها..؟!

تُرخص النفس عندما تبيع أرواحًا بشرية مُقابل أموالاً وجاه.

ضلّت الأفكار تتلاعب براسي وأخذت، الهواجيس تلعبُ في رأسي لعِبًا.

لا أعلم ماذا أفعل هل أستسلم وأرضخ لتحطيم أهدافي وضياع مستقبلي؟ أم أحارب وأنتصبُ بوجه أبي؟

إن واجهت سأكون فتاة تتصف بعقوق الوالدين وأن صمتُ ذهبت إلى الجحيم.

أيدرك الأب بأن هنالك حقوق عليه تجاه ابنائه؟

لقد تعلمت بأن من حقوق الآبناء على أبآئهم إيصال كُل خير إليهم ومنع الشر عنهم.. ولكن أبي أوصل كل الشر إلي تحت تأثير المال ومنع علي كل الخير.

تولَّدت فِكرة بأن أستسلم وأرضخ للقدر الذي وضع أمامي، لم أعد قادرة على الإستيعاب، أَوْشَكَ رأسي أن ينفجر، نهضتُ حينها وتوجهتُ لسجادتي، ودعوت الله وأنا أطلقُ العبرات وناجيته في جوف غرفتي، بأن يفكَّ هذهِ الكربةَ عنّي، وأن يساعدني بأن أتخطى هذهِ المحنة والألم، وكلتُ أمري لله واستعنتُ به، خضتُ بعدها أسهبُ في سُباتٍ تصطحبه تنهيدات من الوجع إثْرَ الحزن الذي خلفته كلماتُ أبي وخذلانه الأول لي، ما أقسى الآلام التي يرتكبها الأباء في حق أبناءهم، وما أصعب محو اثرها من قلوبهم وعقولهم.

تمرُ الساعاتُ ثقيلة وكأنها تمشي فوق

جُرحي، أتى المساء وأنا أتقلبُ مع أحزاني البشعة، وأفكاري تدّبُ على قلبي الناحِل الهزيل دبيب الخوف من مصيرٍ لستُ مستعدة له، حتى أهلكَ جسدي وأضمرَ بهِ علةً، إصْفَرَّ وجهي وتغيَّر بعد أن كانَ ناضِرًا بسِّق، وأجهشتُ بُكاءً لا أعرف لهُ عهدًا من قبل، حتى صوتي لم أعد أعرفهُ، تؤلمني كُلَّ حشرجةٍ يصدرها، مضى على عهدي هذا بضعة من السويعات وقليلاً من الدقائق، تمالكتُ نفسي وعزمتُ على أنّ لا أكفَّ عن المحاولة.. غسلتُ وجهي،

وذهبتُ إلى أمي عازمةً على أنّ أستنجدَ بها وأتحدث معها عمَّا حصل في الليلةِ الماضية، وجدتها جالسةً على عتبة باب سطح منزلنا سارحة تفكر بما أقتسم لها من الجزاء، نظرتُ لها وعيناي تكاد تَفيضُ من الدمع، رميتُ بجسدي المثقل بين أحضانها علّني أشعر بقليل من الأمان، مع لمساتها الحانية.

باشَرتُ أجهش بالبكاء راجيةً منها أن توقف هذهِ الخطوبة فأنا لا أريد ولستُ على استعدادٍ تام لمستقبلٍ أكابدُ بهِ نفسي، لكن ما إنّ تحدثت إليها شعرت وكان الزمن توقف لبرهةٍ..

خاطبتني قائلةً: «لا أستطيع فعل ذلك يابنتي، فأنا مكلومةٌ مثلكِ تمامًا ليس لدي وسيلة بارعة ألجأ إليها من أجل إيقاف هذه الخطوبة، أبوكِ يا ياسمين يأبى أن يسمع الكلام، أو أن يخوض في أي نقاش بشأن هذا الموضوع.

وأخذت تسرد لي ما حدث معها في الليلة الماضية بينها وبين والدي، وهي تحاول الدفاع عني فإذا بهِ يقول لها، عليكِ بأحد الخيارين إما بيتكِ، أو ابنتكِ.

وضع أمي بين نارِين كلتاهُما تحرقانِها.

ما هذه القسوة؟

أكلُّ هذا بسبب المال؟

أم خوفًا على السمعةِ والمكانة؟

لا بل من أجل عدم الرجوع عن كلمةٍ قالها.

أمسكتني بكلتا يديها وضمتني إلى صدرها شعرتُ بأن روحي عادت إليَّ للحظةٍ من الزمن، وحدثتني بأن ليس بيدينا فعلُ أي شيء، ويتوجب عليَّ أن أرضى بما حصل، وأن هذا نصيبي، ولربما يكون عوضًا عما فاتني ويأخذ بيدي، ويحقق لي أحلامي..

توكلي على الله يا ياسمين».

يبقى حضن الأم هو المُسكّن لجميع آلام التعب التي نشعر بها، ويبقى الطمأنينة التي تزرع السكينة رغم الفوضى التي تعترينا.

استمعتُ إلى حديث أمي وقلتُ لها:

أي.. أي عوضٍ سيكون وأنا أساقُ إلى مستقبلٍ مجهول ورجلٍ لا أعرفُ عنه شيئًا.

أيكون قدري أن أُدفن على قيدِ الحياة؟.

أي فرحٍ سيغتالُ قلبي الذي بات مهمومًا ومثقوبًا، تتسربُ أحلامهُ أمام ناظريهِ.

نهضتُ بعدها وذهبت إلى غرفتي وأنا موسومةٌ بالحزن واليأس، كنت آملُ أن أجد لي مخرجًا؛ لكن الأبواب أغلقت، وأحكمت مغاليقها إجبارًا على زواجٍ قاصر، حتى استسلمتُ لما أنا فيه.

إنها ليلةٌ سوداوية معتمة على قلبي، مكبوتة فيها أنفاسي، رئتاي ممتلئتان بالآهات، زفراتٌ أَطْلقها زَفْرةً زفرة، خِلت أن كبدي قد فُتّتت، وصُداعٌ يدق طبولهُ في رأسي، وحريقٌ ثائرٌ في ثنايا جسدي، منذُ ذلك الحدث المشؤوم، الذي فتك بقلبي وجعل أَلَمَهُ تَشْتَدُّ وَطْأَتُهُ في مراحل حياتي.

فقدتُ براءة طفولتي، سُلبت فرحتي مني، لوهلةٍ تمزقت حبال صوتي إثر توسلي ورجائي لهم، جف انسياب دمع عيناي، إشتد شجى وجدي من هول صدمتي من حدث لم أكن أتوقعه، وشعور مُتعب كأنني جبلٌ هويتُ للأرض حُطام، حديثي المتلكئ يكاد يخنقني، صراخٌ يُفتِّتُ قلبي!

غزتَني الحياةُ بلا موعد كالموتِ نزعت عنِي رداء أحلامي، وفرضت عليَّ حياةً لستُ أرغبُها وقادتني نحو طريقٍ مجهول محفوفةً بالبؤسِ،

غزتِني الحياةُ باكرًا.. ذاتها التي غفوتُ في صغري بينما أتمتمٌ متى سأكبر لتغدو أحلامي حقيقة.

هذهِ الليلة هي من أَسوأ الليالي وأقساها على الإطلاق، منذ أن أشرقت عيناي على هذه الأرض.

وهكذا مرت الأيام عليّ بين حزن وقلق وألمٍ على مستقبلٍ مجهول غير مرغوبٍ به، وبين أملٍ كاذب بالقبول، وسعادة تطويها أحزان قلبٍ هلك وتعب، مضَت ليالٍ عديدة وفي داخلي الكثير مِن الآهات لم تخرج، وعَبَرات كتمتُها فضاقت ضيق الخاطر على نفسه من نفسه، وشهقاتٍ تسابقني دنوها وعلّوها وأنا في الوجوم بلا حراكٍ ولا تبدد، ونغزات قلبٍ تُسمّرهُ حتى يقاسمُ الأيام ثباتها الهالِك.

لم أعد أجيدُ النوم منذُ ذلك اليوم، لقد ذهب عن عيني ذهاب الحبيب عن محبوبه، والصحة عن جسدٍ ذا قوةٍ، كُلّ شيءٍ ذهبَ بِلا عودة وأنا في أشدّ حاجتي.. حتى النوم لاذَ بالفِرار وقت حاجتي إليه.

مضت سنة أخرى من مرحلة الثانوية، سنة كانت مليئة بالتعب والجهد والمثابرة وأهمّ من ذلك بالتحديات والجد والاجتهاد، سنة تعبتُ فيها لأحصل على تقدير عالٍ وممتاز، تفصلني عن بداية أحلامي سنة واحدة ليكون هذا النجاح عكازي الذي استند عليه، على أملٍ أن يُغير أبي رأيه.

كان صعبًا تجاهلُ أمرٍ حساسٍ كَهذا، وتفاديهِ وكأن شيئًا لم يكُنّ، مُلئت أيامي بالتفكير المُرهق، حتى أرهقت روحي معه وأوصلتها إلى حافة الموت.

في اليومِ الذي كان يجب أن أستعد لحفلِ تتويجي بلقب الحافظة _(حافظة القرآن الكريم)_ وألبس والديَّ تاج الوقار، وقارًا ورزانةً وأكون سعيدةً ملمومةً بزهرِ أحلامي ومستقبلي بتقديرِ مُمتاز.

حملتُ همًا لم يكن علي حملهُ في عمر الربيع حيثُ تبني الفتياتُ أحلامهن، ويخلدن للنوم بانتظارِ أيامٍ مبهجة وبثقة عالية بأن العائلة هي الداعم الأول لهن.. إلَّا أنا فكنت عكس

الكُل، هدمت أحلامي ولم يعد لي هناء لنومٍ أهدىء فيه أعصابي وأُسكن ضجيج أفكاري اللعينة التي حلّت عليها اللعنة منذُ ذلك اليوم، يؤلمني قلبِي كلما عُدت بالتفكير بخطبتي التي لم أوافق أو بالأصح لم أعلم عنها شيئًا.

«الزواج» الخيارُ الذي كثيرًا ما أغرى البعض، وكثير من الفتيات يهرولنّ سريعًا إليه على حساب مستقبلهن ولكنني لم أفكر به، ولم أبنِ عليهِ مستقبلي أبدًا، بل جعلته خيارًا ثانويًا يكلل نجاحاتي بعد التفوق العلمي والحصول على وظيفةٍ مناسبة تضمن لي عيشًا كريمًا بالتعاون مع الشخص الذي سيكتبه الله من نصيبي لنسعد ونوفر قدرًا لابأس به من السعادة والرفاهية لأولادنا، جُلَّ ما أحلمُ بهِ الآن هو أنّ أكمل دراسة ما بدأت به من علمٍ، وأصل لذروته.

يظنون أن الزواج المُبكر هو الوسيلة الأمثل للتعبير عن حُبهم لبناتهم، وأنهُ المسار الصحيح لعيش حياة سعيدة، ولكنهُ على العكس تمامًا.

اتساءلُ كيف للأحلامِ أنّ تصل إلى قمتها في مُجتمعٍ مُعاق الفكرِ غيرَ مستنير؟!،

هذا القرار هو الذي مزق فرحتِي وحل مكانها الخوف والهلع، قرارٌ أسر أحلامي في زنزانةٍ مُظلمة لا تقيدهُ زنزانةُ سجن

وإنما عادات وتقاليد أبت أن ترضخ لملكوت قلبي، مرت تلك الأيام عليّ ثقيلةً تجثو على قلبي.

أتت الشهادة بهذه الدرجة العالية وكانت هي بصيصُ الأمل التي قد تجعل أبي يعود إلى رشدهِ بعد أن أزف إليه هذا الخبر، ولكنَّهُ ظلّ صامدًا عازمًا على كلمتهِ جاحد كُلَّ أحلامي.

ذهبتُ إليه متفائلةً أملك ضوءًا في ظُلماتِ أيامي التي أعيشها. «أبي لقد حصلتُ على درجاتٍ كامله في الإختبار بتقدير امتياز».

«أدرك أبي بأني أود منه أن يتراجع في قرار الخطوبة فرد علي:

التعليمُ يا ياسمين لا فائدة منهُ، ماذا ستفيدُكِ الشهادة هل ستجلبُ لكِ زوجًا وستبنِي لكِ منزلًا وعائلة؟، كفي عن محاولاتكِ العبثية الغير مُجدية..

لن أغير رأيي سبق وقلتها لكِ: المرأة في بيتِ زوجِها تصان، وخير لها من شقى النجاح، وخطوبتك بعد رمضان».

أنهى حديثهُ مبعثرًا آخر أملٍ تحملهُ روحي، وكأنهُ لم يعرف أنَّ الشقى في كلمتهِ وقرارهِ المُهلك لطموحاتي ومستقبلٍ كان سيصبح حقيقة، لم أكن أدرك أنَّ الحياة قد تُغيّر بكلمة

واحدة، إلَّا حينئذٍ، انفطر فؤادي وهو ينهُرني غير مُبالٍ، تركني أحترقَ مع إحتراق أحلامي وذهابها بعيدًا عني كالسراب.

ذهبتُ إلى غرفتي أحاول ألَّا أوضح تلك النار التي تستعرُ في داخلي.. انْتِحاب أنفاسٍ سريعةِ، الآهات مدفونةٌ في صدري، والتناهيدُ الهاربةُ مني.

لم أكن أدرك أن خُسْرَان الأمنيات صعبًا إلى هذا القدر، عشتُ أيامَ إنهيار وهزيمة منهكة بلا حيلة، متعبةٍ منهم ومني ومن لعبةِ الأيام التي لعبتها عليَّ حتى خسرتُ خسرانًا لم أعهدهُ من قبل.

أتى شهرُ رمضان المبارك بعدَ أيامٍ عجاف على قلبي وشاعريتهِ المسكينةِ، تعاقب الليل والنهار حتى صبَّ الدمعُ مني سيلانَ السيلِ من علٍّ.

العيشُ مرهق في مجتمع يسلبُ من الأنثى الإرادة وينظرُ إليها على أنها آلة جنسية وعليها تلبية خدمات الرجل، والخضوع والإنقياد إلى أوامره، مسلوبةٌ من ما تأملُ إليه وما تحلم به، كأنها تدفنُ حيةً بزواجٍ قبل أوانِه، لا يفقهون فيه الإنسانية المسلوبة، وتمردوا عليها تمرّد الجاهلية في عصرهم، لا شيءَ من هذا إلَّا مُكابدةً وعناء جارحٍ لها وبؤسٌ غائر لا يُشفى..

«المرأةُ في ديننا ليست دُمْيةً للهو والعبث، ولا أداة جامدة لتفريخ النسل، بل إن المرأة لا تَبلغ كمالَ إنسانِيَّتِها إلا حينَ تقترنُ أنوثتُها بِذهن حَصيفٍ وخُلُق شريف، لهذا حين تطمح في الاقتران برجل كفء لها إنما تبحث عن إنسان يُقدِّر نسانيَّتَها وعقلَها قبل شكلِها ومظهرِها». الرافعي.

كأني ريحٌ عابر بلا سحابة ماطرة، وصحبةٌ مع الخيبات طويلاً بلا فراق، وسكون يخفي ضجيجًل صارمًا بقتلي.

أدركتُ أني في عالمٍ يقترفُ الذنب و يزيدهُ إثمًا وعصيانًا ولا يهتدي إليهِ هُدى المؤمن لربه.

ولطالما كان التعليم مهم للذكور ويجتهدُ الآباء لجعلهم يحصلون على شهادات وتشجيعهم دومًا، بينما الإناث يوضعن على رفٍ منسي؛ لأنهم يعتقدون أن المرأة تصانُ في عشِ الزوجية بلا إهتمام لشغفهن في التعليم، ويستمرُ بعض الآباء في دفنِ أحلام بناتهم وحرمانهن من إكمال تعليمهن، ويعودُ السبب في ذلك إلى الجهل والعادات والتقاليد التي خَضع لها الآباء، بأن التعليم عاهة علينا وأنَّ أحلامنا ماهي إلَّا عارٌ على قبائلهم التي حرمت الكثيرات من إتمام دراستهن والوصول إلى أهدافهن وتحقيق أحلامهن التي كانت تكبرُ معهن يومًا بعد يوم، هكذا يظنون بأنهم يقدرون علينا

ليحافظون على قذارة عاداتهم ومشنقة تقاليدهم، ويجرون بنا غصبًا عن إرادتنا لزواجٍ مُبكر؛ ليغرسوا أشواكهم الدامية ويبترون أزهار ربيع أحلامنا وآمالنا، ولتُشّل أفواهنا عن البوحِ به، وليخنقوا عبراتنا كلما ألقوا كاهل قوانينهم على خطوط أحلامها، ظنُّوا أن القهر انساب من تجاعيد أجوافنا شفقةً منا علينا ، وساد الصمتُ في ثغرنا أعوامًا من الزمن... نخافُ أنّ نصرخُ بلِمَ؟

ولم يعلموا بأننا نرفضُ الضعف حدِّ الاستسلام.

وعلى هذا الصدد يقول المنفلوطي:

«أيها الرجل، إن كنتَ تعتقد أنَّ المرأة إنسانٌ مثلك وهبها الله مداركَ مثلَ مداركك، واستعدادًا مثل استعدادك، فعلِّمها كيف تأكل لقمتها من حِرْفَةٍ غير هذه الحرفة النَّكِدَة، وإلَّا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبَك وشاتَك.

إن كنت زوجًا فلا تطردها من منزِلك بعد أن تقضي مَأْرَبَكَ منها، كما تصنع بِنَعْلِكَ التي تلبسها. وإن كنت أبًا فهذه فلذة كبدك فلا تَضِقْ بها ذرعًا، ولا تُلْقِ بها في حِجْرِ وحشٍ ضَارٍ يأكل لحمها، ويمتصُّ دمها، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون، والله لا أعرف لكم بابًا في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

افتحوا لها المكاتب، وابنوا لها المدارس، وعلموها من العلم ما يرفع هِمَّتَها، ويُرَقِّي آدابها، ومن الصناعة ما يُنَاسِبُ قُوَّتَهَا، وما يُشْبِعُ جَوْعَتَهَا إنْ نَبَا بها دهرٌ أو تجهَّم لها حظٌّ.

عَلِّموها لتجعلوا منها مدرسةً يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وَأَدِّبُوها لِيَتَرَبَّى في حِجْرِهَا المستقبلُ العظيمُ للوطن الكريم»

توالتْ عليَّ معاناتي حاولتُ مراتٍ عديدة مع أبي لعل الأيام تهطلُ بمعجزة يلين بها قلبه وتغير كل ما هو حولي لكن للأسف كل المحاولات كانت تبوء بالفشل الذريع دائمًا.

ها قد أتت ليلةُ استقبال رمضان..

ذهبتُ بذاكرتي والدموع تنهمر إلى أيامٍ كان يأتي إلي رمضان والفرحُ يتأججُ في داخلي ووجهي مزدان بتلك الابتسامة التي كانت تؤلم فكي وروح السرور يعم أرجاء البيت وأطوف بين زواياه بينما تنتشرُ رائحة المحبة.

أتذكر أيامًا كانت روحي كخفةِ الفراشات متنقلة إلى كل زوايا البيت.

اليوم روحي ذاتها منطفئة، وأنا في حال تخبطٍ وضياع،

أنام على همٍ وأستيقظُ عليه، أدعو الله في السر والجهر، بأن يرزقني القوة ويهبني صبرَ أوليائهِ وأنبيائه.

شَاقَّنِ عليّ أن أوْدَعَ تلك الأحلام التي كُلما زدتُ عامًا كانت معي في إزْدِيَاد عامًا يتلوه عام

أغفو وأنا أحملُها كالاطفال في حضني وتداعبُني خيالاتُها الجميلة،

كل تلك الأحلام التي ارتسمت في الخيال أَضْحت الآن حقيقة قاسية أَتْأَمَت بجروحٍ تنزف دون اِنْقِطَاع،

أيام ما قبل العشرين أعيش بها حياة الخمسين، تحولتُ من طفلة الى امرأةٍ كبيرة أتجرعُ مرارة قرارات أبي.

حزنٌ، ألمٌ، فوضى، تراكمات، قلقٌ ينامُ بجوارِ روحي ويستيقظ معي؛ ليجدد غيث الألم.

ها هو رمضان قدْ بدأ يلمْلمَ أمتعتهُ أيامًا قليلة ويُبكِينا فراقٌ لا بُدّ منهُ،

وقبل إطلالةِ العيدِ خرجتُ لشراء بعض متطلباته،

أتجول في أزقة مدينتي حيث أن الشّوارع، والأماكن تكتظ بالمارة، ويشتد الزّحام في الأسواق العامة المليئة بإطلالة شتى المحلات، لا بأس فهذه الأيام الطالب الجامعي في إجازة

امتحانات، والأب منشغل في كسوة أطفاله، والأم في شراء تجهيزات العيد إلّا أنا وقلبي المسكين في همٍ آخر عن الناس.

وبينما أنا أتجول، لفت انتباهي من بين صخب الضّوضاء، وضجيج المارة، حوار شخصين أحدهم يقول للآخر الصّدق يا صديقي نحنُ متخلفون وفي الدّرك الأسفل من الإنحطاط.

_ رد عليه: لماذا؟

_ أنظر إلى تلك الكتب المبعثرة على الأرصفة مليئة بالغبار، أليس من المفترض بأن تكون على رفوف المكتبة ذلك المكان مكانها المقدس.

بينما أنظر يا صديقي إلى تلك الأحذيّة في أماكن عالية، وبارزة، حريصون جدًا بالاعتناء بها وتنظيفها كل يوم.

صحيح صحيح القليل من يتوافدون للمكاتب وشراءها ولم يعد البائع مهتم لشأنها.. كم هو مؤلم فأين موقعنا من أمّة اقرأ؟.

فكنت شديدة التَركيز لِسماع جواب الآخر ، شدّتني إجابته حينَ قال: أجننت؟، هل شغفك اليوم حبًا للكتب جعلك أعمى،

الكُتب لن تغنم منه شيء، بينما حذاؤك تلبسه يوم العيد وتخجل من لبسه متسخًا ممزقًا،

أيضًا لن ترتدي كتاب حتى تنفق أموالك عليه بينما ثوبك يمكنك ارتداؤه في أي وقت، وإن كنت تدخر القليل من المال زود نفسك بشيءٍ يجعلك أنيق، وأترك عنك الكتب، ودع الثّقافة لأهلها ولمن هم على شاكلتها.

أصابتني غصّة ألم لتفكيره، لكني لا ألومه فنحنُ في مجتمع أضحّى الإهتمام بالموضة والأناقة أكثر من أناقة عقولنا،

والشّخصية التي تليق بنا نحن العرب قد تبدو على حقيقة في كلامه؛ فالإهتمام بمظهرنا الخارجي يعكس لياقة شخصيتنا، ويهذب نظافتنا.

لكن أخالفه الرأي بقوله: أن الكتب لا غنيمة لها ولا لارتدائها قيمة،

فإني أرى بأنه إن كان لك من الأناقة حبًا فكن أنيق اللباس مظهرًا، وكن أنيق الفكر جوهرًا، وهكذا ستقتضي معادلة الأناقة شكلاً وفكرًا..

أتى يوم العيد، حاولتُ جاهدةً أن أترك عزلتي وأرافق إحباطي، وأخرج من قوقعة الحزن الذي أتخذ من روحي

مسكنًا لهُ منذُ ذلك اليوم المشؤوم، وتلك المشاعر التي لا تفارقني،

حزنٌ أَرَقَ روحي غَمَر عيني إِلْتَهَمَ راحتي، ونبضات قلبي تتسارع وكأنها طبول حربٍ تقرع حزنًا وخوفًا، أحاول البقاء بسلام بعيدةً عن ذلك الإحساس والمشاعر التي تستطيع قتلي بهدوء.

نبض قلبي في ازدياد يومًا بعد يوم، بنفس تلك النبضات التي تنقضي برؤية من حولها مبتهجين بالفرحة ومستشعرين باللذة، حتى تتراقص بخلجات تطرق أبوابهم لتهديهم قبسًا من نور العيد، وكرمًا من مكارمه، بتهنئات مبشرة بالعيد وعافيته كالعادة، ويزداد تراقصهم لتلك البهجة المرتسمة في وجوه الأطفال بشتى الألوان وبتعابير السعادة الثائرة على قلوبهم ووجوههم، وإني وحدي بائسة متهالكة، أحاول أن أتناسى هذا الخبر السيء ولكنني أفشل

تارةً أشعر بالوحدة، وبوهن الروح وتثاقل الهموم على جنباتها، وأخرى تسحقُ بي سحق الدوابِ على الزهر وتذبلُ ما تبقى في الجسد.

ظلامٌ دامس في داخلي، وأنا أحاول أن أتناسى هذه المصيبة التي ستجعلني أودع حلمي إلى الأبد..

كم هو مؤلم أن يتخلى المرءُ عن أحلامه؟.. لمجرد أنك تتخيل ذلك تتألم.

الخيال متنفسنا دائمًا لكنه يؤلمنا أحيانًا.

أتساءل كيف لي أن أترك شغفي وطموحي من أجل أن أتزوج؟

ليجعلونني أعيش تلك الحياة الرتيبة المملة التي لا تشبهني ولا تمت لي بصلة.

تلك الحياة التي يرونها قصر السعادة للفتاة في بلادنا لكنني أراها سجنًا لا أستطيع التحرر منه.

يؤلمني بأنني لا أستطيع أن أخبرهم أنه لا عيب في دراستي ولا عيب في أن أكبر في بيت أبي لا عيب في أن تحقق الفتاة أحلامها وتصل لما تستحق،

ولا عيب في أن يأخذ الآباء بأيدينا كي نزيدهم فخرًا بنا،

لا عيب في كل ذلك بل العيب الحقيقي في أن نعيش حياة الحيوان غير الناطقة ولا نسمو ونرتفع ونعلو بعقولنا التي كرمنا الله بها،

كل هذه الأفكار تدور في رأسي وتنغص عليّ فرحة العيد وتجعلني أشعر بالوحدة رغم إزدحام من حولي وبوهن الروح بالرغم من ثبات جسدي تثاقلت الهموم على روحي فأطفأتها وقطعت دروب السعادة عن قلبي، ذبلت عينايّ المفعمة بحب الحياة.

متسائلة مرة أخرى..

كيف قتلني أبي وأنا على قيد الحياة؟!، وكيف أعاقني عن الحركة وأطرافي لم تبتر؟

فكيف للفرح أنّ يسلك سبيلهُ إلى قلبي وأطرافي مبتورة؟

وكيف للفرح أن يعمَّ على أحدنا، ويلف قلب الآخر حزنًا؟

كيفَ للروح أنّ تنعمّ بالراحة وهي على مشارف الموت بلا سعادة؟

مرت أول أيام العيد والقلق جائع ينهشُ من روحي، والتردد يسيطر عليّ كلَّما فكرتُ في الأمر، لم أعهد همًا كالهم الذي لازمني حينها، ولم يطوي الحظ بساطهُ لي كما طواهُ هذه المرة، وجعلني فقيرةً عن السفر بأحلامي وآمالي وأبدلتني الأيام بثوبٍ من الحزن والتعاسة بدلاً من ثوب السعادة والفرح،

لم ألحظ أي مفاتيحٍ للسعادة والضحك فالقلق يخيم في داخلي كضيفٍ ثقيلٍ لا يرحل، الصمت يؤرق داخلي ويسيطر عليّ لكنني أشعر

بقهر والدتي عليّ، وأعلم أن قلبها يكاد ينفطر من حزنها.

قام بزيارتنا في هذه الأيام كل أهلنا كانوا يهنئوننا بالعيد عامة، ويهنئوني بموتي خاصة ذلك لأن والدي أسهب في الحديث معهم عن الرجل الذي تقدم لخطبتي كنت كلما هممتُ بالإعتراض أمامهم كبّل فمي شيءٌ لا أعلم ماهيته.

لاحظ الجميع أثر التعب علي، بسبب تلك الملامح الظاهرة على وجهي وتشتُّتي عنهم أثناء محادثاتهم لي،

ورغم التعب تصنعت القوة حتى لا يراني أحدهم تائهة غير أن عيوني وهوامشها يظهر عليها الرغبة الجامحة بالبوح، حتى شَعرتْ بسرحان عقلي إحداهن.

_ ياسمين تعالي معي.. فذهبت معها إلى صالة البيت،

وبدأت تسألني ما بي لماذا أنا على هذا الحال؟

ولمَ التجاعيد أصبحت تملئ وجهي؟

وسواد كثيف تحت عيناي؟

وأين روح البشاشة التي كنت أملكها؟

أخبرتها على أمل أن تكون لي عونًا وتخبر والدي برغبتي وتقوم بإقناعه..

أرجوك عمتي اخبري أبي بأني ما زلتُ في سن مبكر وأني لا أريد أن أتزوج الآن.. ما زلتُ طفلة.

حضنتني مواسية ثم قالت بأن الدراسة والأحلام لن تفيد إذا أصبحت كبيرة في السن.

وإذا وهن عظمي لن تقوم الشهادة بدور عكازي

وأنني سأصبح عانسًا وسأكون عالةً على أبي وأن الرجال سيتوقفون عن طلبي للزواج إذا ذهب جمال شبابي!.

تركتُها وأنا مذهولة منها، ذهبتُ إلى غرفتي متسائلة:

أما آن الأوان لهم أن يدركوا معنى التعليم؟! وأن يجعلوا أبناؤهم يزدانون بالعلم والمعرفة والثقافة؟

وأن يكفوا عن سلب حقوقهم من التعليم كما سلبوها من الأجيال الماضية وأن يلتفتوا إلى ما تحصده الدراسة والعلم بشتى المجالات من مكاسب إذا ما اهتممنا بها؟

ألَّا ليتهم يدركون أنَّ لا شيء يضاهي العلم والمعرفة والاستكشاف والخبرة، وأنْ كيف الإنسان يصل إلى ذروة النجاح التي سعى إليها وجاهد من أجلها، وأين تكمن تلك

السعادة الفيّاضة لهذا النجاح؟، ألا ليتهم ولعلَّهم يدركون ذلك.

ارتميتُ فوق السرير، بكيت كأنها أول مرةٍ أبكي فيها في حياتي، بكيت كما لم أبكي من قبل، بكيت لأنَّني لم أجد من يسمعني ويفهم داخلي؛ ولأنَّ لا أحد قادر على أن يخرجني من هذا المأزق، وأنَّ كُلِّ الطرق كانت كحواجز تمنعني من الهرب، وأني سأبقى مخذولةً أبدّ الدهر.

عمري لم يتجاوز العشرين بعد، فماهو سن العنوسة الذي يتحدثون عنه؟، متى تصبح الفتاة عانسًا؟، ومتى كان العمر حدًّا ليقضي على أحلام الفتيات بزواجهن؟

ومتى كانت الأرقام العمرية معايير تُقاس به الفتاة العانس؟!.. ومعيار لتحديد العمر المناسب للزواج؟

«إن العانس الحقيقية هي التي لا علم لها، ولا فكر ولا شهادة ولا ثقافة، الأمية هي الأنثى التي ينطبق عليها لفظ العانس».

وأدركت أن الحياة التي ترتقي فيها الفتاة ليست في بلادي.

أين الحب الذي يقدمه لنا الاباء؟

هل في الطعام والشراب؟

إنَّ الحب الحقيقي هو أن تقف مع من تحب لتحقيق ما يحب، أن تجعل ابنتك تحلق في سماء الأحلام وتحقق حلمًا تلو الآخر، أما الكبت والتحطيم، والخوف من القيل والقال ماهو إلاَّ حبُّ النفس وتكابرٌ وأنانية، وقلة في العقل لا القلب.

إنهُ اليوم الثالث للعيد استيقظتُ في ذلك الصباح وفي داخلي ضيقةٌ لحلمٍ رأيته في منامي ولم يتحقق.

_ أَقْبَلَ أبي في ذلك الصباح يناديني يا ياسمين يا بُنيتي...

نظر إليَّ وأخبرني أن أكون على إستعداد؛ لأن اليوم ستكون الخطبة الرسمية لي من ذلك الرجل،

الذي لا أعرف عنه شيئًا لا ماهيةً ولا شكلاً.

بادلتهُ النظرات ذاتها وأيقنتُ جيدًا وأنا ابحثُ في عيناه عن حنانهِ ورقةِ الكلمات التي كان يقولها لي،

لم يكنّ والدي بهذه القسوةُ ولم تكنّ تليقُ به، والخذلان لا يتلاءمُ مع ملامحه الدافئة

أبي اليوم شخصًا آخر لا يمتُ بصلةٍ لوالدي الذي كنتُ أضع رأسي المتعب على كتفه بينما يعانقُني، وأشعر بالأمان والحنان والحب.

_ تغيُّرات الآباء ألمٌ حاد تجرعتُه كمن يتجرعُ سُّمٌ بإدراك.

لاحظتُ أنَّ الجميع كان منشغلٌ بشيءٍ ما في المنزل ليبدو أجمل مما كان عليه، جلستُ في غرفتي كطائرٍ بُتِر جناحاه، أواسي نفسي بأنها ابتلاءات، ومأجورةً على كُلَّ خدشٍ يصيبُ قلبي، وأنّ لابد من امتحانات صعبة في هذه الحياة وأن المعاناة والتعب والقلق هو رفيق الإنسان في كل مكان وزمان وأن فَهْمُنا العميقُ لقولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَد﴾.

كنتُ أجلسُ بجسدٍ متعبٍ هزيل وبعينين مُنْهَكتين تَرمَقُان كلّ شيءٍ من حولهما، تتحركان مبصِرتين لتؤديا مهمتيهما دون أن تسقط دمعةً واحدة تيقظ بها الوجوم الذي سكنَ فيّ، ووصل إلى سِدر المنتهى من الموت الصامت، حتى جعلني بهذا الشعور المميت، أنظرُ للجميع وأنا غارقةً في صمتي، وحزني القاتم الذي انصبَّ عليّ جِراحًا لا تُداوى ندوبها حتى وإنَّ رَمَقَت رمقةُ البائسة التي لا مقدرة لها على فعل شيء غير التأرجحُ وجعًا في صدرٍ أرهقتهُ الأحزان.

أصواتٌ في رأسي لا تهدأ ولا تعرف للهدوء سبيلاً إلا الهلاك.. كُلُّ مافي قلبي يؤلمني ويشدُّ إزرهُ اِنتقامًا لروحٍ سلّمت واستسلمت، أَوْشَكتُ على أن أجن، وعلى أنّ يأخذَ النُقصان ما أخذهُ من نفسي حتى يحملني هذا العذاب فوق عذاب،

ما الذي يحدث؟ ومن هذا الشخص الذي قَلب حياتي رأسًا على عقب فجأة وفي غمضة عين؟، تخبَّطتُ يمينًا وشمالاً، تهتُ في عدمِ الإدراك.. غامضٌ كُلَّ ما يحدث، لم أجد شيئًا بَيِّنًا وواضحًا.

أَقْبَلَت عائلة العريس إلينا، وأمي وبقية أهلي يقدمون للضيوف ضيافةً نُحسن بها إليهم ونُكرمهم حق الكرم والنُبل، وأنا في غرفتي متهالكة والشعور بالحزن يكبتُ صدري وتخنقني عَبَراته كلما فكرت في هذا التغيّير الذي سيحدث لحياتي، وكيف لي أنّ اتأقلم مع عيشةٍ لم أرضَ بها حق الرضاء إلا لوالديّ،

قطعت التفكير أمي وبنات عمي لِإبْلاغي بأن وقت الحتف قد آن وعليّ أنّ أخرج لهم.. ولكنني دَثَّرت جَسَدِي بكِساءٍ مُسْتَحْدَث، أخفف بهِ رعشةَ جسدي المتواصلة، ابتَغَوا كثيرًا إرضائي، إِحْتِوَاء أمي جعلني أجهشُ بالبكاء خشيةً وتضرُعًا لأن تنهي ما بدأ، لكِنَّها أبت أن تعصي أمر والدي خوفًا منهُ علينا وعلى بيتها.

: ابنتي ياسمين أنتِ أصبحتي كبيرة وعاقلة، وقد بلغتي السن الذي تتزوجُ فيه الفتيات لإكمال دينهن، وأنتِ جميلة ما شاء اللهُ لكِ من الجمال ولا ينقُصكِ شيء.

: أمي لا أريد يا أمي أنا لستُ كبيرة ولا جميلة ولست مستعدة للحياة الزوجية، لا أملك القدرة على تحمل مسؤولية كهذه بهذا السن.

أمطروا عليَّ وابلاً من الكلمات المُؤيِّدة لقضيَّة الزواج، وأنني أستطيع أن أكون زوجةً مثالية.

أَذهبت أَثر الدموع من على وجهي وأَزلتُها،

وانْتَصَبتُ بقوةٍ غلفتُ بها نفسي عندما أدركت أنني بلا سندٍ وأنني وحيدة بتفكيري ونظرتي للحياة،

ارتَدَيتُ اللبس، وزانت نفسي، خرجت بخطواتٍ خائفة، ألقيت السلام وجلست في الزَّاوية من المجلس كان فيها مكانًا فارغًا لي، حاولتْ والدةُ العريس أنّ تتحدث معي، فرددتُ عليها بردود مُتمهِّلة ومُماطِلة لعلها تدرك أنني لا أرغب بالزواج من ابنها، وتتركني وشأني وتكفُّ عن التفكير بتزويجه مني، لكنها قالت أنني خجولة مليئة بالحياء كما يجب للعروس أن تكون.

كانوا يتحدثون كثيرًا عن عادات الزواج وأحاديث كثيرة لم أسمعها أو لم أدركها كنتُ معهم جسدًا خاليًا من الروح، جسد صامت، وعقلي وقلبي يتجولان في أماكن أخرى.

تصنعتُ الإبتسامة وهممت بالخروج، لتخبرني والدتي بأن أبي أخبرها بأن (ناصر) يريد أن يراني.

نعم إنه اسم الشخص الذي سوف يصبح زوجي.

أتى وقت النظرة الشرعية وأنا على مناجاةِ لله بأن يفرغ على قلبي صبرًا؛ فإنّ الحياة ترهقنا كثيرًا ويبقى أملنا أن القادم سيكون أفضل.

تفرغ الجميع من الغرفة، وإذا به يدخل إليَّ ليراني.

كان لقاءً باهتًا لا يشبه اللقاءات، ابْتَغَى فتح باب للحديث بإسهاب فيه، لكني لم أكن أشعر بأني مستعدة للحديث أَرَادَ أن يمسك يداي؛ لأشعر بالاطمئنان، والراحة، ولا يجب علي أن أشعر بالخجل منه أو الخوف، لكني سرعان ما انتفضت وأفلتُّ يده.

غادر المكان.

غادر الغرفة...

انتهت النظرة الشرعية وعدتُ وأنا أشعر بالتوهان لا أعلم ماذا يحدث اضطرابٌ في عقلي، ما الذي أصابني؟، ما

الذي جَرَى لحياتي، كيف تغيرت حياة تلك الطفلة لتصبح عروسًا في أعينهم؟

شَاهَدَتُ وجهي في المرآة.. أَراقَ الدمعة حارقة فمسحتها وأنا لا أراني في المرآة، بل أرى كل تلك الأحلام التي قُتلت وأحداث الجاهلية التي كانت الفتاة تُقتل حية، وسلبُ البهجة من أمام مرأى عيناي.

دخل أبي إلى الغرفة ليشكرني بعد أن ذهب ناصر، قائلاً: شكرًا يا ياسمين لأنك سمحتِ بالنظرة الشرعية، فإن الناس هنا لا يرحمون الفتاة التي ترفض النظرة الشرعية يقولون أن الفتاة لا تمتنع عن الزواج إلَّا إذا كان بها عيب وأنتِ ليس بكِ عيب يُذكر، أو إنها تحب شخصًا آخر، وهذه إنّ كنتِ قد عملتيها اقتلكِ إنْ كانت حقيقة، فشكرًا لأنكِ سمحتي بهذا ورفعتي رأسي.

قد يظهر بالأنثى ألفَ عيب وقد يتهمها بكُلِّ التُهم ليضعها في الدركِ الأسفل، وقد تُستَتر بألفِ حسنةٍ ويرفعون من شأنها، كُلّ هذا يندرج تحت تقبُّلها للنظرة الشرعية ورفضها.

تركني أبي وذهب للخروج فازددّتُ غيضًا لهم جميعًا.

من أين يأتي الأشخاص بهذه الأفكار العقيمة قد تمتنع الفتاة لأنها تحب علمها وتريد أن تعتمد على نفسها وتنفع بلادها وغيرها تريد أن تتزوج شخصًا تجده مناسبًا لها تريد أن تربي أبنائها تربيةً حسنة.

من علّمهم أن حياة الفتاة تعتمد على رجل، من علّمهم أننا يجب أن نرضي رجلاً كي يرضى عنا الأخرون.

هنالك مفاهيمٌ يجب أن تدفن بدلاً عن أحلامنا.

كانت نظراتي إليه ضامرة ولم أنبس ببنتِ شفة راقبت خطواته إلى الباب خرج وأغلق الباب خلفه .

كنت أدرك أن أبي ذا قلبٍ رحيم ما الذي حدث لهُ ليصبح قاتلاً لأحلامي التي بنيناها سويًا.

كبرنا ونحن نسمع أن الرجل يجب أن يكون قاسيًا، أما أبي الرجل الذي كان به جانبًا لينًا، جعلتهُ الأموال قاسيًا على فلذة كبده.

تفعل الأموال بالإنسان ما لا يفعل أي شيءٍ آخر.

إِشْتِهاء قَوِيٌّ يكْتَسَحَ صدري في إِئْتِيَاب روحي القديمة التي أحب وطقوس حياتي التي إِسْتَأْنَسَ بها.

بدأت الشمس بالغروب وأنا أراقبها بكُلِّ حزنٍ من نافذة غرفتي أنظرُ إلى السماء مُخاطبة إياها عن أوجاعٍ يضجُّ بها قلبي وروحي، في محاولةً لإيجاد إجابة أقتنعُ بها وأسيرُ على خُطاها، ولكن لا وجود للإجابات في بئر هذهِ الأوجاع.

نادتني أمي لأخرج في المجلس، ولكنني رفضتُ الخروج من غرفتي واعتذرتُ عن عدم الذهاب إلى تجمُّع النساء القائم في المجلس، وبقيتُ أواسي نفسي على مصيبةٍ أوقعت بها كلمة لا علاقةَ لي بها ولا شأن، سمعت إِرْتِعَاد يدٍ على الباب ناديتُ بالدخول ظنًا مني بأنه أحد بنات عمي أتت لتواسيني، ولكنَّ بدأ لي عكس ماظننت، فُتِحَ الباب ثم تبين لي بأَنَّهُ أبي، دخل إلى حيثُ أجلس يريدُ مخاطبتي، ولكنِّ كنتُ في تفكيرٍ مستمر مع نفسي عن سبب قدومه إلى غرفتي، وما هو الشي الذي جعلهُ يأتي في مثل هذا الوقت، قطع تفكيري حديثُ أبي ليخبرني بما حدث بينهم وما الأشياء التي تشاركانها ليخرجان بنفس النتيجة ونفس القرار.

أَقْبَلَ ليتحدث معي برغبة العريس بتقديم عقد القرآن الآن وتحديد موعد الزفاف وأنه مستعدٌ لكُلِّ الترتيبات

المتوجبة عليه لإكمال هذا الزواج، شعرتُ بدوران مفاجئ لم أشعر بنفسي حينها إلا والدموع تنساب من على وجنتي بحرقة، ويداي ترتجفان خوفًا مما يحدث، ومما سيحدث، شعوري بالخوف جعلني تائهةً أمام الإجابة، غارقةً في التّيه والضياع كُرهًا لما سيأتي، وما سأقبل عليه من هذا الزواج.

هدأتُ قليلاً وتريَّثتُ ريثما تبيَّن إلي كيف أستعيد توزاني،

أردفت قائلةً: حسنًا يا أبي وماذا قلت له، هل وافقت على ماطلبَ منك، أم رفضت ؟

: بالطبع يا ابنتي ياسمين وافقت عليه وأنتِ على ضوء هذا ستستعدين إلى ذلك، وسيكون الزفاف في هذهِ الأيام والعقد اليوم، أبدأي بتجهيزاتك أنتِ وأمكِ وأخبريني عن كل ما تحتاجانه، يجب أن نكمل كُلّ تجهيزاتك وملابسك.

_ لم أرى طيلة عمري أبًا يَسره إيذاء ابنته، ولم أرى أبًا يُفضل نفسهُ ونزواتهِ الشخصية على ابنته، إلا أبي، ما أقسى قساوة الأهل وجبروتهم وما أقسى شقى الحياة عليّ وعلى أضغاثُ أحلامٍ كانت على قيد الأمل.

إنها السادسة والنصف وصوت الرجال يعتلي في المجلس وأنا أعيشُ في سكرات الموت مُحتضِّرة لبرزخِ العيش مع رجلٍ

لا أعرفه، أبكي نفسي وأندب حلمي وأنعي حظي أموت موتًا بطيئًا، وفي لحظة سكون تعالت أصوات الزغاريد وإذا بصوت خطواتٍ تقترب من غرفتي.

أبي عاد مرة أخرى ولكنها أشبه بمجيئ ملك الموت، دخل وفي يديه أوراق العقد،

ياسمين ماذا بك يا أبنتي..

أنه يسأل عني؟ أعلم بأنهُ لفظٌ طارئ أو زلة لسان وأن لطافة الحديث قد تكون فخًا أحيانًا للوقوع في كمينٍ قاتِل، إنه يريد مني أن أضع بصمتي في عقد القرآن.

: تعالي يا ياسمين اقتربي مني.

اقتربت منه، أمسك بيدي وقال لي وقعي يابنتي أريد أن أطمئن عليكِ مع رجلٍ ستعيشين معه حياة كريمة ترضين بها وتسعدين، وكأنَّهُ لا يعلم بأنني لا أريد هذا الزواج ولا هذه الحياة ولا هذا الرجل بالذات.

نظرتُ إلى وجهِ أبي وهو يتحدث وعيوني تذرف الدموع بإسهاب وضرباتُ قلبي تسابقُ الزمن في اضطراب وقلق من مستقبلٍ أجهلُ فيه سعادتي.

: وقعي يا ياسمين..

بيدي هذه وقعت عقد موتي، بيدي هذه وافقتُ على قتلي بيدي، هذه اليد التي كانت تمسك بالقلم لترسم أحلامها أمسكتهُ الآن لأشوه كل ما رسمت وأهدم كل مابنيت وأكون بذلك صرت في كنف رجلٍ سيغلق على أحلامي في زنزانة النسيان ولن يجعلها تلّوح في سماء الواقع.

خرج أبي يحمل شهادة وفاتي في يديه.

دخلت إليَّ أمي ومعها بضعةٌ من أقاربي ليهنئونني بهذا الزواج،

عارضتُها كثيرًا وبكيت كثيرًا ذهبت لكل فردٍ كان معها أرتجيه أنَّ يقنعها لإلغاء هذه الصفقة، (صفقة الموت).

ظننتُ أنهم سيساعدونني لكنني كنت أجد الرد ذاته:

«أنتِ كبيرة وهذا وقتكِ والفتاة لا مكان لها غير منزل زوجها ولا وجود لأحلامٍ الفتيات، ولا ينبغي أن تُكمل الفتاة دراستها».

بدأت خيوط الفجر بالظُّهور، وبَزَغ ضوء الشمس في محاولةٍ لبدء إشراقِ يومٍ جديد.

برفقة زقزقة العصافير والسير بخفةِ الرياح مُحَاوِلةً التناسي لما حدث يوم أمس..

تعذرت لأمي بأن صديقتي تمر بوعكةٍ صحية وأنني أريد زيارتها تبريرًا لأهرب من حضرة الموت؛ لأن في معتقداتنا الخاطئة يجب أن لا تغادر الفتاة المقبلة على الزواج منزل أبيها قطعًا مهما كان الأمر، ولكن كسرتُ هذه القاعدة وذهبتُ لزيارتها وما إن رأتني حتى رددتْ مهللةً مستبشرةً بقدومي، حضنتُها حُضن المرتجي للتخفيف عمَّا بي.

إنَّ الأصدقاء أرواحنا التي لا تسكن معنا.

رأت عيناي ذابلة ووجهي شاحب تساءلت عن السبب!

مردفة قولها أنكِ يا ياسمين مخطوبة لرجلٍ ثريٍ جدًا، لا ينقصه شيء، سوف يأخذك إلى أجمل المتنزهات وستسافران إلى دولٍ عديدةٍ لقضاءِ شهر العسل....

أمتعضت لكلامها في الوهلة الأولى.

: حتى أنتِ يا أسماء تظنين أنني سأكون سعيدةً معه!..

: نعم يا ياسمين إنه ثري جدًا لن يقصر معكِ بشيء، ستأخذين كُلَّ ما تحتاجينه من الأسواق دون إفلاس لأنك ستكونين امرأة رجلٍ يملك الملايين، ستكون حياتك مزدانة بالرفاهية،

إنَّ هذا الرجل يا ياسمين سيغدق عليكِ بأمواله وستعيشين أنتِ وأبناؤكم برخاءٍ ورفاهيةٍ، وسعادةٍ لامتناهية.

: لكنني يا اسماء أطمح بإكمال تعليمي، ثم إنني وإن فكرت في الزواج يومًا، فإنني سوف أتزوج رجلاً يُحبني ويخاف الله فيَّ.

إنني يا أسماء أريده لي زوجًا تقيًا، صالِحًا، مُهتديًا، مُطيعًا، شريفًا، يغمر حياتي بكلِّ معاني السعادة والهدايةِ والصّلاح.

أن يكون ذاتي وحياتي، ولن يبقى شيءٌ أملكه إلا وتكلّل عليه.

أن يكون شديد الثّقة، هيبةً لا يخالطها خوف، أن ينفض عن خشمهِ غبار التّغتر، أن تكون عينيه الصّغيرتين حالكة السّواد منبع الأمان، ومن طقوسات ملامحه محيا الطيب والكرم، ومن نضوج عقله وفكره اتسامه بالحكمة، ومن شهامته وقفته لا مديح يكفكف له!.

أن يكون خليل الكتب، وعاشق القلم، ووليد الكتابة، ومستوحي دربه بالفرقان.

أن يُتيم بالتّفكر والتّدبر، ويبلغ من العقل ذروةً؛ ليجعلّني ثمرةَ حياته، وأسيرةَ قلبه، ويكون سندي وعونّي في ظلّ عرشه، وأجعلّه من مسار حياتي قدوةً وأُسوة، وأتخذه لظلمات أيامي نورًا.

أن يبقى سكينة منزلي، وينشرح صدري بقربه ومن ملامحهِ الخاشعة، أريدهُ يا أسماء مؤنسي في ظلمة الليالي ووحشتها، أطمئن لثبات قلبه بالقرآن والصّلوات، مقبلاً على الطّاعات، مرطبًا لشفتيه ولسانِه بالتّسبيح كل حين.

أريدهُ يا أسماء التّقي المواضّب على صلواته، وأتمسك بقلبه وروحه، طالبةً الأمان ويمسك بيديّ ويربت على ظهري مرددًا: _ إنّ اللّه معنا_ مع حُبنا الشريف.

: يا لتفكيركِ القديم يا ياسمين، أتعلمين شيئًا؟، كنت قد قرأت الكثير من الروايات ذات الطابع الرومانسي، تخيلي أن يأخذك ناصر إلى فرنسا، أن يسافر بكِ إلى أجمل المتنزهات وستُقِيمين بأجمل الفنادق، أن يغمركِ بالحب والعطاء والحنان، إن الحب يا ياسمين يأتي بعد الزواج،

ستكون حياتك وردية مع رجل يملك الأموال صدقيني أنتِ ذات حظ جميل.

: ولكن يا أسماء:

أن قراءتكِ لروايات الغرام ستضيف رونقًا ورومانسية وتلهم العواطف وتعزز العلاقة ولكنها ليست واقعية بما يكفي ليعيشها الفرد واقعًا كما تخيّلها وعاشها وهو يقرأ،

معظم الفتيات يا صديقتي يحلمنَ بعالم وردي مليء بالسعادة والحُب مثل بطلات الروايات الرومنسية التي يقرأنها أو يُشاهدنها عبر الشاشات في السينما أو الدراما، يلتقي فيها الحبيبين وتترسخ العلاقة بينهما ليُصبحا زوجين، فيلبسان النظارات الشمسية ويعشيان حياة تنم عن الرفاهية والراحة، يسافران إلى أماكن مزادنةٍ مكسوةٍ بالخضرةِ، حتمًا يرينها صورًا جميلة بلا شك، تعكس مدى الأمان والانسجام اللذان يتمناهما الجميع.

لكن ما لا يعلمن هو أن هذه الصور الوردية في الحقيقة مجرد أرواح تهرب من واقع العلاقات، تخفي عيوبها وتبرز فقط محاسنها وتصورها للأشخاص صورًا شاعرية بهيّة جذابة وساحرة.

فالروايات يا أسماء ما هي إلا خيال يروّج لنا الجانب المشرق من الحياة الزوجية المليئة بالأوقات الجميلة الماتعة، دون أن نعرف حقيقة الجزئية الأخرى الغامضة.

فيجد بعض الأزواج أنفسهم عالقين في منتصف الطريق، حيث نتفاجئ بالطلاق بعد فترة قصيرة من الزواج.

يقولون بكل صراحة "لم نتفق!"،

وكأنهم لم يكونوا يتخيلوا بأنَّ الحياة الزوجية يمكن أن تكون مختلفة تمامًا عن تصوراتهم وتوقعاتهم، خططوا لحياة وردية، رسموا في خيالهم لوحةً جميلة من السعادة والمحبة، لكنهم تفاجأوا بأنَّ الحياة الزوجية تكشف طِباعهم وتصرفاتهم وأفعالهم الحقيقية، وتظهرُ الجوانب السلبية، وأن الحياة الزوجية تكتنفها صعوبات لم يكونوا يتوقعونها، ينبغي عليكِ أن تفرقي بين الخيال والواقع الذي نعيشه، لكي لا ننصدم فيما بعد.

يجب أن نكون واقعيين وندرك أن الحياة الزوجية ليست مجرد رواية خيالية تجسد أحلامنا، بل هي تجربة حقيقية تحتاج إلى تفاهم وتسامح وجهد مشترك؛ يجب أن نقبل الشريك كما هو بسلبياته وإيجابياته، وأن نحاول التقليل من سلبياتنا التي لا تلقَ قبولاً من الشريك، وأن نتعامل مع صعوبات الحياة بصبرٍ وحكمة، أن نوازن بين قراراتنا الحياتية وأحلامنا؛ لنعيش حياةٍ واقعية سعيدة قائمة على الرضا نُحافظ فيها على قيمنا وتطمئن بها قلوبنا.

فلنتفادى الإنصياع لأرواح الخيال ولنبني حياتنا على أُسس حقيقية، لنتعلم كيف نتعامل مع الصعوبات بشكلٍ بنّاءٍ وفعّال، وأن نكون مستعدين للتضحية والتكيف مع

التغيّرات التي تحدث في الحياة الزوجية، فالعلاقات ليست ثابتة، بل هي متغيرة وتتطور مع مرور الوقت، وقد تواجهنا صعوبات واختلافات في الرؤى والأهداف، ولكن يمكننا تجاوزها بالتفاهم.

علاوة على ذلك، يجب أن ندرك أن الحياة الزوجية ليست مكانًا للكمال، وإنما حياة تكاملية بين الزوجين، وفي الأخير نحن بشر ونمتلك عيوب واضحة، ومن الطبيعي أن تظهر هذه العيوب مع مرور الوقت، فالأهم هو كيفية التعامل معها والعمل على تطوير أنفسنا وعلاقتنا.

ويجب أن نتذكر أن الحب والرومنسية ليست أمورًا تحدث بشكل تلقائي ومستمر، بل إنها تحتاج إلى جهدٍ من الطرفين لتستمر.

وفي النهاية يا أسماء، الحياة الزوجية مؤسسة إجتماعية تُبنى بالحب والود والتفاهم والعطاء وهي رحلة مشتركة تحتاج إلى تعاون وتفاهم؛ فيجب أن نتخلى عن الأحلام الوردية التي قرأناها في الروايات وأن نبني علاقات على الواقع الذي نعيشه فالحب الحقيقي يبدأ عندما نتعلم كيف نتعايش مع الواقع ونقبل الشخص الآخر بكل ما فيه من عيوب ومحاسن.

_ أسهبتُ في الحديث يا أسماء سأقول لكِ شيئًا آخر قبل أن أذهب:

القراءة هي أفضل نشاط يقوم به الإنسان في هذه الحياة؛ فتعلمي القراءة من أجل إكتساب المعرفة والمهارات، وتوسيع الإدراك، و يجب أن تكون قراءتك حصادها تأثير وتطوير لا تغير وتطبيق.

: دقيقة يا ياسمين أرى أنكِ تمتلكين ضوء الكتابة المتقنة من خلال قراءتكِ المكثفة، وقد تكوني كاتبة، لكنكِ تخفين اسمك في الكتابات التي ترسليها ولا تريدين إظهاره.. لماذا؟

: لستُ كاتبة يا أسماء، أنا فتاة تسترق كُل شيء لتعبر عن ما يجول في خاطرها فتاة تخشى أن يعرف أهلها أنّها تجيد الكتابة أو أن يدرك الجميع اسمها الحقيقي.

: ولكن يا ياسمين، لماذا هكذا، أنا أراكِ كاتبة جميلة جدًا أحببت ما تكتبينه رأيت روحي بين ثنايا نصوصكِ.

: حسنًا سأخبرك نعم إنني أهوى الكتابة ولديّ شغف حميم لها منذ الطّفولة ولكن هناك موانع عائلية حرمتني من صقل موهبتي ونقش بصمة لها يا أسماء.

: أليس من المُعتاد والواجب على العائلة هو الدّعم والوقوف بجانبكِ، وتطوير هذه الموهبة الجميلة يا ياسمين؟

: نعم يا أسماء وبكلّ تأكيد، وهذه الرّكيزة الأساسية لنأخذ بيد مواهبنا ونطورها ونحقق نجاحها بقربهم وإسنادهم لنا.

لكن حين يكون عالمك ومحيطك وبالأخصّ عائلتك عالم لا يعرف من الفتاة وحياتها سوى أنها مُجرد أفكار وعادات مضت عليها، ورُسمت بمخيلتهم أنّ هذه المواهب تعدُ بمثابة خُلق قبيح ترتكبه وعار لهم ويدفنون مواهبها في مهدها.

تحديدًا إذا كَانت فتاة فذّة من بين فتيات عائلتها، وتمتلك كومة أحلام، وتصنع من الحياة، شتى فنون الإبداع؛ هُنا سيكون العائق واضحًا لهم.

فمن منظورهم أن الفتاة لا تملكُ من الطّموحات عدا سُنة الحياة، ومن المواهب التّفنن بأعمال المنزل، وإذا أبدعت عليها أن تبدع بأمور محدودة ولا يحقُ لها التّجاوز والانفتاح وترويج اسمها بحُجة موهبة وفن.

: للأسف يا ياسمين إنهم غير ملومين، فيما يقولون، ويفكرون فهم يتبعون تلك الأفكار الخاصة التي تربوا عليها ونشأوا عليها واتخذوا منها موروثًا ينظرون للمرأة من تلك الأمور والمنظور الذي أعتادوا عليه.

: فعلاً يا أسماء وكان من الصّعب عليَّ أن أطلق عنان أحرفي، وإنني لحزينة جدًا على أفكارهم وعدم إدراكهم بأنّ في القلم ارتقاء مجتمع ومن الكتابة منبع ثقافة وانتماء، وأننا بها نحقق ما قيل بأهمية _ إقرأ_ ولكن للأسف إنّ سفاسف العادات والمجتمعات المتخلفة حلّت علينا إجبارًا لنسكت ذلك الصّوت الذي بداخلنا.

: ماذا لو أخذتِ يا ياسمين بيد هوايتك، وجمحتِ أفكارك بطريقةٍ تُرضيكِ وتُقنعهم وترضين بها طموحاتكِ؟

: إنني لا أهتم لتفكير الجميع فردًا فردًا، فمن الصّعب جدًا تغير فكرهم بعد هذه المُدة.

ولكن كلّ ما يُهمني منهم أمي وأكثرهم أبي؛ عليه سأخطو تجاه رغبتي وأنا واثقة، غير مُبالية لأقاويل البّقية.

وما دامت هذه موهبتي التي نَشأت في مجتمعٍ قديدَ الفكر والتفكير؛ فإنني لشديدة الحب لها، وسأكافح لاسيما بالصّبر، وأنظر إليها من زاوية بعيدة، ريثما تتنقح أفكارهم بتحضّر الثّقافة وبالتفكير العقلاني، والإرادة الحرة.

: آه يا ياسمين راقني جدًا تفكيرك المنطقي! حسنًا لو صادفتك فرصة لإقناع عائلتك حول موهبتك، بماذا ستفكرين أو بالأحرى ماذا ستطلبين منهم؟

: أرجو يا أسماء أن يتحقق ذلك، سأخبرهم أولاً أن يعودوا إلى رشدهم فنحن في زمن الألفية الثالثة، زمن ارتقت فيه الثّقافة والحضارة، يجب عليهم أن يتحرروا من قيود العادات والتقاليد وأن يقدّسوا مبدأ الإرادة الحُرة.

ومن ثمّ إن كان هذا الانحطاط يسري بمجتمعهم فليكفّوا عن التّدخل بأفكار غيرهم خصوصًا أولادهم (بنين وبنات)، ويتركوا شأن من يناقض عقليتهم وليحترموا أفكاره.

: أهذا يكفي لتنمية موهبتك وتطويرها يا ياسمين؟

: ليس بالكفاية التّامة يا أسماء فهناك طاقة ومتطلبات لها، ولكن كما بدأنا نقاشنا؛ محك السّند والعون والرّبت العائلي لا يقتصر على مساعدات مادية ودعم تزويدي..

إنما محك السّند هو كيف يشجعوا آراء وأفكار أبنائهم، وألا يزيغوا وراء غرائز أفكارهم المتحجرة المقيتة، بل ليكونوا الأولوية بالأخذ بيد هذه الطّموحات، وأن يتكيفوا مع فطرة الإنسان بما حباه الله من عقل وإرادة، فإن مضوا على ما قلته سابقًا سأحقق تكافؤًا لي ولهم، ستُثمر موهبتي دون ريب وخوف، وسأكتب بكلّ ثقة وأثبت جدارة قلمي وتفوقه في التّعبير العاطفي والمنطقي كما أرجو..

وأتمنى أن تفهمي ماقلتهُ لكِ وتفكري فيهِ جيدًا وأعيدي التفكير مرارًا وتكرارًا، أنا أستسمحكِ عذرًا يا أسماء، لقد تأخر الوقت وعليّ الذهاب الآن.

ذهبتُ وأنا أحدث نفسي أتمنى أن تفهم أسماء ما أقصد، هي لم تفهم بأنني أرى العلم حبيبًا يستحق الإهتمام، وأن أحلام الإنسان هي عشقُه الوحيد وأنني لا أريد أن يقف بيني وبينها أي عائق.

يمر الوقت ويزيد الضيق اتّساعًا بداخلي، ويحمّلني أثقالاً فوق ثِقل كاهلي، جُحِدت السعادة في أعماقي وطمس الأمل الذي كنتُ أعيش به، أخذتُ أفكّرُ بمخرجٍ يخرجني من ظلمات الوجع إلى نورٍ أستدل بهِ طريقَ حياةٍ بلا شقاء، ولكن تخونني دائمًا أفكاري وتبقى في عصارِها، وتتضارب ضرب الرياح للشجر حتى ترهقني وتأخذ ماتريد أخذهُ مني وتجعلني غصنًا يابسًا هالكًا، تمنيتُ أنْ آخذ هُدنة صُلحٍ مع الوقت ليعود كُلَّ شيءٍ لمجراه الحقيقي، ولكن لا واقعَ في تمني من يؤمن بـ إستحالة الأمنيات.

أَقْبَلَ اللَّيلُ عَقْبَ النَّهار من يوم الزفاف، يومُ الفصل بين الحياة والموت، الأحلام واليقظة، الأمنيات والسأم منها، الطموح والردع، السعادةُ والشقاء، كلها محطةُ فصلٍ مابين البين لعيش حياة مليئة بالخوف والذعر من كُلِّ ما أشعر بهِ، اليوم الذي أنزّفُ فيهِ عروسةً إلى الموت غصبًا عن الأحلام التي كنتُ أعيش من أجلها، ساعات فقط تفصلني عن اليوم

الذي تُقتل فيهِ رياحين العمر الصغير والجسد النحيل والأحلام الكبيرة.

نُهِشَ رأسي بالأفكارُ وبات ما أخشاهُ حقيقةً تذّرُوها الرياح، نعم هذهِ الليلة هي ليلةُ الزفاف الحقيقة، لم تكن حلمًا كما كان يُخيل لي، بل إنَّهُ لا يفصُلني عن تشييعِ عروسةٍ سِوى بضعِةِ ساعات، تمرُ كأنها مشاركة في مراسيم دفني ببطء، تنهدتُ بوجعٍ وأخذتُ أتقلب يمينًا ويسارًا لأول مرةٍ أعرف هذا الشعور، أن ينهك عينيكَ النوم لكنك لا تستطيع أن تنام، وأفكارك تأخذك ذهابًا وإيابًا، فكرة توديع هذه الغرفة يفطر قلبي ألمًا ويجعل الراحة غريبة ترفض زيارتي، في هذا الوقت عادت إلي الكثير من الأحلام وأنا أمام المرآة التي لطالما وقفت أمامها وتخيلت نفسي أمامها طبيبةً تداوي الجراح، وتخفف الألام، وكل زاويةٍ في هذه الغرفة وهذا البيت تحمل فيها ذكريات عمري الصغير حيثُ طفولتي وضحكاتي وأنا ألعب بالدُمَى بفرح، كنتُ حينها أعتقد بأن أسوأ ماقد يحدث هو إفساد وجبةِ الغداء ونسيانِ وضع السُكر في الشاي والقلقُ عند انتظارِ نتائج الاختبارات.

وهُنا أيضًا في البيت ذاته غفوت ليالٍ أحتضنُ الكُتب وأرسمُ الأحلام بلونها الزهري، ولا زال هنالك الكثير من

الذكريات واللحظات التي يجب أن تتخلد وأعيشها هنا في منزلي الذي بكيت وضحكت فيه وخطوت فيه خطواتي الأولى وحلمتُ فيهِ أحلامي البريئة.

هنالك أماكن عند مغادرتها تفقدنا بعضًا منا أو ربما تفقدنا ذواتنا كليّةً، كمغادرة بيتنا القديم والذكريات السعيدة والمواقف الجميلة، ولكن لا شيء أوجع من مغادرة الوطن، وجعٌ شديد بعذابهِ وكربهِ وإيلامه.

وبينما أخذتُ أحدث نفسي اغتال الخوفُ والقلق ملامحي الدافئة وتثابر الحزن على قلبي ودفنهُ في مقبرةِ البؤس السحيق.. دخلت أمي إلى الغرفة:

«حبيبتي ياسمين لماذا إلى الآن أنتِ مستيقظة أُخلدي للنوم حتى تستيقظي باكرًا لا تنسِيّ غدًا ستكونين عروسة.

أتعلمين يا ياسمين عندما علمتُ بأني أحمل طفلة قررتُ تسميتكِ بـ ياسمين لأني كنتُ أعلم أن ابنتي ستكون جميلة ورقيقة كزهرةِ الياسمين مفعمة بالحياة

وسيكون حضورها باعثًا للسعادة، ولها روحٌ تجعلها سلطانةً بين النساءِ دون مضاهاة!

كم كنتُ سعيدة وأنا احملكِ لأول مرة وأشم رائحتكِ، فخورةٌ بك، ولا زلتُ يا ياسمين أذكرّ نفسي بأني أنجبتُ

ملائيكية حسناء بهيّة جميلة، أنتِ الشي الذي كان يهونُ عليَّ الأيام الصعبة..

الأمرُ ذاتهُ يرعبُني يا ياسمينّتي أنّ يخلوُ المنزل فجأةً منكِ وتغيبُ ضحكاتكِ وجنونكِ ووجهكِ عني وغيابكِ عن الحضورِ بجانبي ومشاركتكِ لي في طهوِ الطعام.. ولكنها سنةُ الحياة مهما تأخرت ستتزوجين لبناءِ عائلة ولا يمكنني إيقاف ذلك».

انهالت الدموع من مقلتي؛ فحضنتني حُضنًا كنتُ أتوق إليه منذ أشهر لأشعر بهذا الشعور ثمُ نامت بين أحضاني، وكأنها تدرك أنهُ لا بد من الفراق ولو طال المدى، إزداد همي وغادرني البكاء حتى أصبحتُ عروسةً بكماء أثقل الحزن قلبها

كُلِّ الليالي في إسدالها حزنٌ إلَّا ليلةُ غدٍ ستكون بمثابة عزاءٍ بفرح الزفاف.

«إنها ليلةُ عزاءٍ بفرحِ الزفاف»

ابتسمت أمي وهي تنهض وتمسح وجهها:

«غدًا زفافكِ نامي الآن».

غادرت الغرفة وبقي الشعور بالألم يتسلل بداخلي، فشعرت باختناقٍ يصل مداه الى قلبي سالبًا كُلِّ الهدوء الذي

كان في تلك الليلة، ويظهر شيء يُسمع في صوتي المرتجف، ويدايّ المرتعشتان ووجهي الضامر، بدأ الحزن يظهر.

ومهما حاول المرء إخفاء حزنه إلا أنّ الملامح تُحكي حجم تلك الأحزان.

أنظر إلى السماء وأتساءل أيدفنُ الآباء بناتهم ويسمون أنفسهم آباء؟!،

كيف يمكن لبعض الآباء أن يكونوا قساةً وظالمين هكذا؟

لا، بل وينامون دون أن تؤنبهُم ضمائرهم أو ينهشهم الندم!، ولا تزعجهُم كوابيسُ أحزانَ أبنائهم

؟، أيعقل أنّ يكونوا بهذا الغلظ والجشع حينما يتعلقُ الأمر بالمال أو بكسر كلمةٍ تَفَوّهوا بها للآخرين ولو على حساب تلك الوعود التي قطعوها لأولادهم في طفولتهم بأن يوفروا لهم كل سُبل السعادة وبمساندتهم لتحقيق أحلامهم؟

غفت عيناي المرهقتان لدقائق بعد ساعات من البكاء، وغطتُ في نومٍ عميقٍ.

إن البكاء هو وسيلتنا للتعبير عما في داخلنا حينَ لا يجدي الحديثُ نفعًا..

استيقظتُ في صباح يوم الزفاف صليت الفجر وأعتلت قلبي سكينةٌ تشبه تربيت الأمهات ورضى الآباء وقصص

الجدات، ثم ما إن التفتُ ليساري لتغادرني هذه السكينة برؤية حقائبي التي تنتظر توضيبي لها، كان توضيب الحقائب دائمًا ما يشعرني بالبهجة لأنني سأكتشف مكانًا جديدًا وسأتعرف على أناسٍ جدد، هذه المرة يبدو الأمر كمن يتجهز لآخر رحلةٍ لهُ، ومن يكتب وصيتهُ الأخيرة وهو في سكرات الموت.

وضبتُ حقائبي الممتلئة بالملابس وقليل من المجوهرات التي أشتريناها مؤخرًا، كل شيءٍ كان يبدو جيدًا ماعدا قلبي المفطور ورئتاي المثقوبتان وروحي المكبلة وهذه أشياء لا نعيرها الأهمية المطلقة الآن.

صحيحٌ أنني دفنت حلمي لكنني أخذتُ كل كتبي وأوراقي وأقلامي لعلها تجبر كسري يومًا، لَعَلّي أداوي جراحي بها يومًا ما، ولَعَلّي أخلق لي عالمًا خاصًا لهُ مساحتُه مع الكتب، في صحبة الكُتب لا نُعاني من الوحدة

طرقاتُ يدٍ على الباب تتبعها والدتي التي تقدمت نحوي لتخبرني بنصائح الأمهات التي حفظنها من أمهاتهن: (أطيعي زوجكِ وكوني زوجة بارة وكوني لأمّهِ إبنةً لم تنجبها...)

كانت كمن يغرس خنجرًا مسمومًا في كل كلمةٍ تقولها لي، لم تفكر باحتضاني، لم تفكر بالسؤال عن حالي السيء والأضعف عن ذي قبل!.

المنزل يضج بالنساء، والأقارب يضعون الزينة والأضواء، كان ضجيج المنزل لا يقل عن الضجيج في رأسي كان الجميع سعداء وكنتُ الوحيدة الحزينة بينهم وبدتْ ملامحي هادئة وساكنة حتى ظنَ الجميعُ بأنني راضيةً وسعيدة.

جاءت المرأة التي ستقوم بوضع مساحيق التجميل على وجهي وشعري لأصبح عروسًا جميلة كما يُقال، ثم تبعتها عددٌ من الصديقات ليساعدنني في أرتداء الفستان الأبيض ووضع المجوهرات ليصبح مظهري كاملاً كان من حولي هن من يخترن ماذا سأرتدي.

كنت شاردة الذهن والصمت يكبل فمي وجسدي القوي يبدو هزيلاً بما فيه الكفاية لجعل نسمة هواءٍ تؤثر فيّ، إنتهيتُ من ارتداء كفني!.

إنني اليوم أنزف حُزنًا، ثمة حزن لا تخفيه مساحيق التجميل، وثمة انطفاء لا تشعله كل محاولات الآخرين، فنحن كالماء ظاهرنا يعكس داخلنا.

انتهينا من التحضير أرتديت كفني الأبيض، لا أجد كلماتٍ تصف حسرة قلبي في هذه اللحظة.

تقدم والدايّ ليباركانِ لي، ألبسني والدي عِقْدَ جدتي الذي كان يحتفظ به منذ وفاتها، إحتضنتني والدتي وكأنها تودعني الوداع الأخير بكينا جميعًا ثم أنصرفوا.

نظرتُ إلى المرآة لأجدني مازلتُ طفلة، وخصلات الليل تنسابُ خلفي وليست الجدائل وعيناي مشبعة بالدموع ومتزينة بألوانٍ زاهية، وجدتُني طفلةً بلباسِ إمرأة حتى كدتُ لا أعرفُني ثمة عتاب على شكل دموع وثمة إعتذار على شكل دموع، ثمة أشياء لا نستطيع البوح بها على الرغم من وجعها في دواخلنا!

لم أكن لأتخيل أن ينتهي بي المطاف هُنا، أساق نحو حياةٍ لا أرغبُها، ورجلٍ لا أعلم عنه سوى اسمه، وهآنذي أرثي فَقد نفسي وأزفُ بخطوات ثقيلةٍ إلى الصالة، تمعنتُ في وجوههن السعيدة والوانِ الزهور وكنتُ زهرةً ذابلة.

تمنيتُ أن أبقى طفلةً أغفو في أحضانِ والداي دون أن يزور الذبول ربيع قلبي، يالله كم تبدو الأمنيات صعبة!، وكم تبدو حقيقة واقعي بشعة!.

أعادني صوتُ المصورة إلى نفسي المتعبة لتوثق صور الألم.

ليس فقط اللحظات السعيدة يتم توثيقها بالصور لتبقى ذكرى جميلة، اللحظات المؤلمة أيضًا يتم توثيقها وما أصعب محوها ونسيانها، تبقى معقلة إلى أن يأذن لها الله.

اسماء: «تبدين جميلة جدًا اليوم يا ياسمين».

تلفظت بها أسماء بينما تقدمت لتبارك زفافي،

هذهِ ملامحُ الحزن ياصديقتي، إن الحزن يا أسماء يجملُ ملامح النساء.

: ولكن لِم! أنتِ حزينة ألم تعتادي وتنسيّن الأمر؟، ضعي بدايةً جديدة، ويمكنكِ تقبلُ الأمر، أنتِ تزيدين الأمر صعوبة بأفكارك، هذا زفافكِ ألا يجدر بكِ أن تكونِ سعيدة يا ياسمين؟.

انهالت عليَّ بالكلمات بينما تظنُ أنني أبالغ

لأنها لا تشعرُ بالنار التي تشتعل في داخلي

وتحرقُني، لا تدرك كم تبدو الحياة في عيناي بلا معنى وأنني ابتلعُ بكائي وأأجل إنهياري..

لا تعلم لأن مشاعري ليست مشاعرها.

هنا آمنت بمقولة: (الكل حكيمٌ ما دامت القصة ليست قصته).

زفوني إلى الصالة وقُدمت الهدايا، وتمنياتهم لي بالسعادة الأبدية ودعواتهم لي بالراحة والهناء.

كان الجميع يبتسم وبقدر ابتسامتهم كان هناك بكاءً بداخلي، كان صوت الموسيقى في أذني كنحيب الأمهات الثكالىٰ، كانت في صدري معركةً استشهدت فيها أحلامي.

إنه وقت دخول ناصر واقتيادي لقبرنا الزوجي،

اكتسى وجهي باللون الاحمر، وشعرت برجفة في صدري وكل مافيّ، شعرتُ لأول مرةٍ بالضعف.

إلى هذه اللحظة الأخيرة وأنا أنتظر أن يحدث شيءٌ يخلصني من هذه الفاجعة، أمسك بيدي ناصر وأخذنا نمشي ببطءٍ أمام الحضور، ما يميزني عن الموتى أنني ميتة تعيشُ طقوسَ جنازتها.

ودعنِي والداي وبكيتُ على فراقنا والموقف الذي تجبرني عليهِ العادات لأبقى مثقوبةَ القلبِ مكسورةَ الجناحين.

دخلنا سيارة مزخرفة تزف بها فتاةٌ لموتها ليتم إطلاق الأمر أن ذهب بنا إلى الفندق.

هُنا بداية جديدة للحزن والأسى وليست بداية للفرح كما يظنونها.

ياليتني كُنت الليلة طيرًا أتركُ كل شيء خلفي!، زفافي وعائلتي وحزني، لأطيرَ بعيدًا بعيدًا، لكن هذا مستحيل.

فكرت أنه ربما يلزمُني أن أعيش بلا قلب فقط كي أرتاح.

_ الموت الحقيقي مرة لكن سكراته تباغتك في كثيرٍ من الأوقات لتشعرك بتعاسة الحياة التي تعيشها.

والتغيير جميلٌ لكن في كثيرٍ من الأحيان، يشتهي المرء حياته العادية ذات الروتين الموحد لشدة مايؤلمه التغيير.

أقف على إطلالة الصالة مودعةً كل من ينظر إلي، أحاول أن أشبع عينيّ بكل ما فيها وما يحيط بها، وكأنه الوداع الأخير لي في هذه الحياة.

صعدتُ إلى السيارة برفقة ناصر لننطلق إلى الفندق وهُنا تبدأ قصتي الجديدة.

«الذين يضعون روؤسهم على النوافذ لايرون شيئًا في الطريق والذين يحملقون في درجات سُلم الصعود لا يعلمون متى وصلوا للنهاية».

فتح ناصر باب جناحنا الفاخر الذي كان يوجد فيه كل شيء عدا السعادة، وصلنا إلى الفندق بعد أن امتلئ عقلي

بالأفكار السلبية، أدركت حين خطت قدماي الغرفة أن أتوقع من الحياة كُل شي.

بالأمسِ كانت روحي حرةً سعيدة، واليوم حزينةً مبتورةَ الجناحين،

إبتسم وملامحهُ راضية، لكنني أشحتُ بوجهي عنه، لا رغبةَ لي برؤيته،

رحب بي للداخل دخلت للغرفة بعينين تقطران من قلبي، جلس بجانبي واضعًا يده على يدي لأسحبها منه باشمئزازٍ نابعٍ من قلبي وضع يده أسفل وجهي ليرفعه لأرى وجهه للمرة الأولى بكل وضوح كان رجلاً عاديًا لا يبدو سيئًا لكنني كنت أحمل له من الكره ما لا يسعه صدري.

_ نزع ملابس الزفاف وأبدلها بأخرى مريحة.

جلستُ فوق أريكة تقبعُ في نهاية الغرفة أتنهدُ بتعب أنتشلني صوته يقول: «اليوم هو أسعدُ يومٍ في حياتي».

استرسل الحديث وكم شعرتُ حينها بالكره الذي يكبر في قلبي:

«بالنسبة لك، أما عني فهو أتعس الأيام وأحزنها، أنا لا أريدك لقد أُجبرتُ على الزواج منك، وهذا الزواج يعتبرُ باطل لأنهُ لم يكن بموافقتي، أنا هنا الآن معك بالإكراه لا رغبةً مني،

أجبروني وأنا ضعيفة، لا أقوى على معارضتهم، أغريتهم بمالك اللعين ولم يفكروا بي، أنت الشر الذي أصابني دون إرادة مني وسأكون ممتنة أن تتركني وشأني».

لم أشعر حينها سوى بشيءٍ يلتطم على خدي دوى صداه في عقلي وقلبي إنها كفه!

تسقط رجولة الذكر حين يمد يديه على الأنثى.

وضعتُ يدي على مكان الكف وبكيتُ قهرًا على حالتي حتى آلمني صدري، كان شعورًا خانقًا جثم على قلبي، وشعرتُ بنبضاتِ تعلوُ بألم، شعرت بالغربة فأنا كالطير المسجُونِ في قفصٍ ثمين يظنهُ الجميعُ سعيدًا.

هذه المرةُ الأولى، لم يسبق لأحدٍ لمس خدي سوى لمسحِ الدموع حتى أبي برغِم قسوتهُ عليَّ وجبري على الزواج لكنهُ لم يضربني، كنتُ فرحةَ والداي الأولى كبرتُ بين دلالِهم وحبهم، استطاع المال إفساد قلب أبي ووضع غشاوة على عيناه،

علتْ شهقاتُ بكائي! حُرِمت الحنانُ باكرًا، وهآنذي أُهانُ بأول ليلةٍ لأنني بحتُ بما يثقلُني، تجرأ وصفعني لأنهُ يدرك أنّ لا كتف أميلُ عليهِ بتعبي وهمي.

ذهب ليعود بعدها وهو يدفعُ عربةً صغيرةً فوقها طعام، ووجهه بدا طبيعيًا، يدعوني لتناولِ العشاء معه وكأن شيئًا لم يحدث!، ولكنني رفضتُ،

فاستدار يتناول طعام العشاء بهدوءٍ متجاهلاً نظراتي الغاضبة، تحسستُ خدي والحرارةُ الممزوجة به، أي حزنٍ سيُلقى على روحي؟ وأي حريق ستشعلهُ في قلبي؟

إنني هُنا مع رجلٍ يكادُ يفتكُ بي بلا رحمة أو تأنيب ضمير، إستمعتُ لصوته بينما يأمرُني بتغييرِ ملابسي، أفزعني صوتهُ بينما ينهرني بقسوة:

«ما هذهِ الملابس؟ أتمزحين أنتِ؟

ألم تشرح لكِ أمك؟ أنتِ الآن زوجتي ولستِ طفلة ترتدي هذه الملابس الشتوية ومن حقي أن آخذ منكِ ما يأخذ الرجل من زوجته، أنا منتظر لهذه اللحظة منذ مدة، هيا إذهبي وغيري ملابسك».

يريد أن يسلب من بين جنبيَّ جوهرة العفاف، زادت طلباتُ ناصر وإزداد معهُ عنادهُ وإصرارهُ على أن يحاول فيما فشل من قبل، استغربت من طلبهِ الذي كانَ جديدًا عليّ وعلى طفلةٍ بهذا العُمر مُتعجبة منه ومتردده في تلبيةِ أي شيءٍ يودُ مني ارتداءه،

ألا يدرك بأنني مازلتُ أصغر من فهمِه، واستيعاب كل ما يحدث حتى اليوم؟

شعرتُ كما لو أنهُ إبتاعني كسلعةٍ أو أمةٍ له ويريدُ مني تنفيذ ما يقوله دون أن يبالي بمشاعري، تجاهلتُ كلامه واستفزهُ صمتي أقترب مني والشر يكسو ملامحه، أمسك رأسي النحيل بينما يحاول نزع ملابسي بعنف شهقتُ على وقعها المؤلم محاولةً التملص من قبضتهِ القاسية، أثار رفضي له وتمنعي عليه غضبهُ وجنونهُ فصار كالبُركان مليئًا بالغضب عليّ، ارتفعت يداهُ بقوةٍ وأخذَ يصفعُ وجهي ضربةً تلو الأخرى، ضربني في كُلِّ جزءٍ وقعت عليهِ يداهُ الثقيلتان من جسدي الضعيف، وعلا صوتُ نحيبي وصراخي، ثم خَبُتَ صوتي في حالةِ إغماءٍ نُصفيّ، لا شيءَ يُدرّك إلا أذناي، كانتا تسمعُ أنفاسهِ المتفجرة وصوتهِ الذي يرعدُ الروح، حتى شعرتُ بالألم في حبالي الصوتية،

وشاء اللهُ أن ينقذني من وحشيته، فارتفاع أصواتنا جذبَ من هم بالخارج، وتوقف عن الضرب عندما سمعَ طرقات متتالية على الباب بسؤالٍ عمَّا سُمِع من غرفتنا؟ ولكن سمعتهُ وهو ينفي كل شيء بحجج كاذبة وباطلة.

استغليتُ إنشغاله وهربت نحو الغرفة الموازية وأغلقُت الباب بقوةٍ أخشى أن يعود لضربِ جسدي الصغير ويُبرِحهُ ضربًا، لم أصدق أنني وحديّ الآن وأنَّ هذا ما دفعني إليهِ أبي وهو مرفوعَ الرأس، ولم أصدق أنَّ هذا الجشع كلَّهُ يوجد في قلبِ إنسان، ظننتُ للحظة أنَّهُ أسدًا ببشاعته،

أجهشت بكاءً مريرًا يُعزّي حُزني وجسدي الهالك ويدعي لهُ بالرحمة والجَلَدِ على ما ذاق من ألم،

أدركتُ بشاعة السوءِ ومدى الوحشية التي تتجسد في ذئابٍ بشرية وكيف وتدمي وتقتل الروح والجسد.

أهذا الرجلُ الذي قال لي أبي بأنني سأصانُ وأُعزز في قلبهِ وبيته؟، أهذا الرجلُ الذي كانَ أبي يتمنى لي الخير معه؟، أكان هذا الرجلُ الذي تركتُ كُلَّ أحلامي من أجله؟.

عانقتُ حزنِي اتسائل متى كبرت متى باتت الحياة صعبة وظالمة إلى هذا الحد؟، أي ذنبٍ أرتكبتهُ حتى تصبح الأيام قاسية عليّ هكذا؟

كل ما تقعُ عليهِ عيناي يثيرُ فِيّ الرغبةَ بالإختفاءِ.. أن أصبح فجأةً غير مرئية، أن أكون ميّتةً على الأقل، ليتني أي شيء عدا أن أكون فتاة، آهٍ لو يغشى الموتُ قلبي وأنامُ بعدها دون استيقاظ، أنامُ نومةِ الموت، حينها لن أسامحهُ وسيقتصُ

الله منه على كُلِّ مافعلهُ بي وبأحلامي الكبيرة، كان قلبي مفطورًا مما حصل، حتى علا صوتُ شهقاتِي الموجوعة وأزفرتُ زفرةً حارّةٍ ملتهبة كادت تحرُق أعضائي.

أي زواجٍ هذا؟، وأي رجلٍ نبيل هذا الذي يفرضُ نفسهُ بالقوة ويريدُ سلبي ببشاعة ويستبيح جسدي دون إذني؟، تحطم قلبي منذُ الساعات الأولى لزواجي، ألقتني الحياة في امتحانات صعبة، إتسعَ الجرحُ وبات غائرًا، آلمني قلبي، أولستُ أملك الحق في نفسي؟، أيُستباح جسدي رغمًا عني لأنني أُنثى؟، كان علي أن لا أصمت مكسورةً بإهانة دون قول كلمةٍ واحدة.

انتهت الليلة وكل منا في غرفته وأنا ألتحف السقف والأرض فرشي هكذا كانت أول ليلةٍ من عقد الموت الذي وقعته بيدي وكان أبي أول شاهدٍ على وفاتي.

بان الصباح مُظلمًا على قلبي الركيك المُحمل بحزنٍ كالجبال، استيقظت محاولةً أنّ أرفع رأسي المثقل بالهموم لأفيق من كوابيس الأحلام إلى كوابيس يقظةٍ مُرعبة، يكاد الصداع يفتك بي لشدة ما بكيت ليلةَ أمس، فإذا بي أسمع أوامر ناصر الصارمة مع فتحةِ أول عين، قال لي:

استعدي سنذهب اليوم للمنزل، فوالدايّ ينتظراننا ولا أريدكِ أنّ تتأخري كي لا نتأخر عليهم.

لوهلة أخذتني الذكرى إلى صباحٍ كان في منزلي جميلاً جدًا كنت أشرق مع الشمس كل يوم كنت أغرد وأطير وأضحك وأشدو، اليوم كل شيءٍ مختلف، نهضت من الفراش بجسدٍ كُلَّ ما فيه يؤلمني، ذهبت لدورة المياه حاولت أن أستعيد نشاطي بحمامٍ دافئ، وقفتُ أمام المرآة أتأمل شحوبَ وجهي وذبولَ عيناي المتورمتان من البكاء، أخفيت كُلَّ ملامحِ التعب و رتبتُ شعري وارتديت ملابسًا كانت قد أخبرتني والدتي أنّ ألبسها حينما نذهب لمنزله.

انطلقنا بالسيارة مودعين خلفنا الفندق المشؤوم الذي عشت فيه ليلةً مأساوية، وصلنا لمنزلٍ أقل ما يقال عنه بأنه قصرٌ كبير، رحبت بنا والدته ترحيبًا مُبهجًا، ألقيت عليها السلام حاولت أن أظهر السعادة ولو بقدرٍ ضئيل، لأنني أدرك أنه لا ذنب لها ولا تعلم ما يحدثُ، تبادلنا أطرافُ الحديث.

حاولت أنّ اتناسى ما كابدتهُ الليلة الماضية من جراحٍ جديدة، وندوبٍ مستمرة، كان اليوم عاديًا جدًا تناولنا وجبة الغداء سويًا ومر الوقت سريعًا ثم أتى المساء، تكرر طلب ناصر هذه الليلة أيضًا، لكنني عاندته وامتنعت كثيرًا، هكذا مرت

ثلاث ليالٍ بالكثير من أصواتنا المتعالية والبكاء اللامنقطع حتى أتى ناصر في الليلة الرابعة بوجهٍ مختلف فعرفت من حديثه أنه كان عند أصدقائه لكنني لم أفهم تعابير وجهه القاسية والغاضبة بشدةٍ اليوم، يبدو وكأنهُ بُركانًا ثائرًا يريد أنّ ينفجر.

شيءٌ مُحزن أنّ تُباع الفتاة بدراهم معدودة، أن تبقى بلا سندٍ طوال حياتها، أن تخاف العودة لأنها تعلم بأن لا معين ولا نصير لها، ولا رحيمًا يرقُّ لها، ولا مُشفقًا لحالها وما أصابها من الوجع، كُلُّ شيءٍ هالكٌ في حياتها لا محالة، وحدها دائمًا من تقاسي أشد أنواع القسوة والخيبة.

عيناي تنزفان كلما تذكرتها.

تعرضت للعنف، والضرب بقسوةٍ وحشيةٍ من ناصر لأنني امتنعت أن أصبح زوجتهُ الحقيقية وليس على الورق فقط، لأنني لم أمكنّهُ من نفسي وجسدي الهزيل الصغير.

أمام قسوته وصلابة جسده ويداهُ المكبلتان لي وقدماه التي لا أستطيع الحراك منهما وإحكامه لإغلاق فمي كي لايسمع صوتي سامع، وبقرارٍ أتخذ غصبًا عني أخذ مني اليوم كُلّ عذريتي وبدون توافقٍ أو رضى، وبقسوة الهنود الحمر وعشوائية الغجر جعلني وسيلة لإشباع غريزته دون حبٍ مني

أو أي تعابير تدل على الرضى، أخذ مني كُلِّ شيء لا أعلمُ إلى أي مدى يستطيع الإنسان أنّ يُميت شخصًا ويسلُب منهُ كُلَّ شيء.

أُنتهكتْ روحي بطريقةٍ بشعة نال منها ظنًا بأن رجولتهُ تكتمل عندما يسلبُها مرغمة دون أن يتسلل إلى قلبه قليلاً من ألم؟، ونسي أنّ الحياة لا تستمرُ بالقوة والصرامة، وإنما بالودِ والقبول.

كل العلاقات في الحياة لها حدود، حدود مع الأصدقاء، الأقارب، الأهل وغيرهم، يجب أن لا نجعل هذه العلاقات تدخل إلى بيوتنا وتسترق السمع من غرف نومنا.

جميع الأسرار تظلُّ أسرار، جميلة كانت أم سيئة، كُلّ ما يُعاش في البيوت يبقى سرًا أبد الدهر مهما كانت العلاقات قوية فلا يحق لأي طرف أن يُعلم الآخرين بها أبدًا.

لم أستغرب من تصرفات ناصر ومن حديثه وضربه وعنفه معي، بل من شدة جبروته هذه المرة، وأخذتُ أفكر مليًا أيعقل أنّهُ أخبر أحدًا من أصدقائه بأننا لا زلنا زوجين على الورق فقط، وبالتأكيد ضحكوا عليه واستهزأوا برجولته، وهذا ما زاد من حدةِ غضبه ووحشيته.

حاولتُ أن أتدارك نفسي وذهبتُ لدورة المياة لأقف تحت الماء أطول مدةٍ في حياتي لتسيل دموعي الحارقة مع برودة الماء، شعرتُ كما لو أنَّ روحي تنزف، لم أكن لاتوقع أنني سأكون مع وحشٍ أنانيٍّ بهيئةِ بشر! وأن يغتالَ ضعفي بقوتهِ متجاهلاً تعبي وبكائي وأنَّ جسدي لا يزال جسد طفلة، وبالرغم من كُلِّ أوجاع جسدي الذي تعرض للضربِ المتواصل حاولت أنّ أبقى قويةً أمامه ألا أُظهر إنكساري والذلُ

الذي ينهشُ قلبي بنهمٍ، خرجتُ وقد إنزاح الخوفُ عني فلم يعد هناك ما أخشى حدوثه، ولم يعد لدي ما أخاف عليه.

لكن حدثت المفاجأة بأنه لم يعد للغرفة الليلة، نمت نومًا ظننته سيكون مريحًا لكنه كان يحمل أوجاع اليقظة في أحلامه، والكوابيس اللامنقطعة، وجسدي المُرهق من أثر الضرب الذي بقيت آثارهُ عالقةً تدلُ على وحشيتهُ.

في اليوم التالي استيقظتُ وكل ما بي يؤلمني، وتوالت ذكرى الأمسِ تحفرُ بداخلي جُرحًا لا يطيب، لم يكن ليهون آلآم الضرب والخدوش إلا قهر كسري بإذلال.

شعرتُ بالجوع والإرهاق ذهبت باتجاه المطبخ لأتفاجأ بحديثِ ناصر مع والدته فحاولت الإنصات لهم، وكان يحدثها عمّا حصل بيننا.

: لا يا أمي لم يحدث كما أخبرتِني.

: إنها ليست بكرًا ياولدي يبدو أنها فقدت عذريتها مع شخصٍ آخر، لذا كانت تمتنعُ عنك في الأيام الماضية.

: أتقصدين أنها عاشت علاقة من قبلي.

صرخ في نهاية تساؤلِهِ كأنه يؤكد كلامَ والدته وكأنه استطاع الوصول إلى حقيقةٍ ما.

بصوته الذي أصبح مخيفًا ومن الحديث الذي كنت أسمعه كان جسدي يرتجف خوفًا وحبات العرق تتدحرج على جبيني ودمعةً تخبرني بما هو أتٍ تحرق وجنتي أخذت أركض للغرفة وأغلقت الباب على نفسي.

لحق بي ناصر وكان يطرق الباب بشدةٍ جعلتني أبكي بحرقةٍ على نفسي لماذا يحدث معي كل هذا؟ دعوتُ الله بينما أرتجفُ خوفًا.

حينما أيقنتُ أنه يكاد يخلع الباب وقفت على قدميّ أمثل القوة لكن ما إنّ فتحتُ له الباب حتى وضع يده على شعري وشدهُ بقوة جعلني أسقطُ أرضًا من شدةِ الوجع وهو يلقي عليَّ اتهاماتِهِ وأسئلتِهِ المتوالية،

اتهمني ناصر بشرفي وعفتي بطهري ونقائي قتل كُلَّ براءتي ضربني بكُلِّ ما أُوتي من قوة حتى فقدت الوعي ولا أعرف ما حدث بعدها.

أفقتُ بعد ساعةٍ تقريبًا، وكان يقف ناصر ووالدته فوق رأسي فتحت عيناي وكنت أرى وجهيهما ضبابٍ كثيف.

نظر نحوي ضاحكًا بسخرية بينما يردفُ بثقة.

: هه استيقظت ياسمين العفيفة الشريفة.

اخبريني من أجل من كنتِ ترفضينني، من هذا الذي كنتِ تحبينهُ قبلي بينما ظننتُ امتنعانكِ خوفًا، كم كنتُ غبيًا غافلاً عن حقيقةٍ واضحةٍ أمام عينيّ.

نطقتُ بصوتٍ متحشرج لفظتُ أثر التعب والصداع الذي يفتكُ برأسي: أريد ماءًا.

: لا يوجد ماء حتى تخبريني بكل شيء.

صرختُ في وجهِه وقد بلغ صبري منتهاه من كُلِّ تلك الاتهامات الباطلة الذي وجهها نحوي: أخبرك بماذا؟

تتهمني بشرفي وتطعنُ في تربيتي وتريد مني قول كذبةٍ لا صلةً لي بها، أي شيء تريدهُ مني كي أرضي تفكيرك الجاهل؟، أنني أطهرُ منكم وأشرفكم.

أنتهى ذلك اليوم وما انتهت ندوبِهِ وأثره الباقي على روحي.

توالت عليَّ الأيام بجروحٍ وكأنها تنتقم مني تركتني أتخبطُ في أفكاري وهواجسي اتشاطرُ مع قلبي من أجل سؤالٍ واحد برغمِ يقيني بعفتي، ولكنني أتساءل هل أعاني من مرض ما؟ أم كان عيبًا خَلقيًا؟، أرهقني التفكير المفرط.

ومرت الأيام بينما أتحمل أسوأ وأبشع الكلمات التي يلقيها عليّ بينما يبرحُني ضربًا حتى يُدمي جسدي، استمر بعنفوانهُ ووحشتيه حتى صرّح لي مهددًا بالفضيحة!..

قررتُ اللجوءُ لوالدي.

وذهبتُ نحو منزلي أدعُو الله أن تنزاحَ عني هذهِ الأحزان أنْ اتخلص من كل أوجاعي بحتُ بكل شيء ظنًا بأنهُ سيرقُ قلبه ويأخذُ لي الحق من ناصر وما لبثتُ سوى القليل حيث نهرني والدي بجفاء! أنتِ تحاولين الخلاص من زوجكِ، والعودةُ هُنا لذا قمتِ بخلقِ كل هذه الأكاذيب وأنا لم أعرف من قبل رجلاً بقدرهِ واحترامه وسمعته الطيبة.

خذلنِي أبي مرةً أخرى اتهمني بالكذب وصدّق الغريب وفضلهُ على ابنته، عدتُ نحو منزله أجرُ أذيال الخيبة!، أدركت أنني بلا سندٍ أتكئُ عليه وأهربُ من أذى الدنيا اليهِ أيقنتُ أن من تكسرهُ العائلة لا تجبرهُ الحياة أبدًا مهما لجأ إلى الناس.

تَدانَتْ الأيام وهاهو شهرٌ منذ مُغادَرَتي لمنزل والدي لكن اليوم وبدون سابق إنذار حاول ناصر تَهْوِيلي وضربي، رفَعتُ صَوْتي عاليًا شَديدًا مُحْدِثة بصَخْبٍ، وحِدَّة في وجهه، مما جعله يقسو عليّ أكثر وتلقيتُ ضربًا مبرحًا على وجهي تحولت

بعدها الى كدمات تحكي ما عانيتُه وبقيت آثار الحزام محفورةً على جسدي.

فهربت إلى منزل والدي الذي فزعَ من رؤيتي،

أكاد أموتُ تعبًا وأثر الضرب بادٍ على وجهي وجسمي حتى صرخ من خوفه عليّ.

غفوتُ بعدها بعد أن حرمتُ من نومٍ مطمئنٍ لمدةِ شهر وتبللت وسادتي بدمعي، كيف مرت الأيام وأذاقتني مرُها وملأت روحي بخدوشٍ تركتني أتمزقُ ألمًا، حرمتني السعادة باكرًا في الوقتِ الذي كان يجبُ أنْ أعيش فيهِ أجملَ أيامي.

والدي الشخص الذي أصبح قاسيًا شديدًا عليّ وعلى قرارتي المصيرية، الذي جرّني إلى مصيبةٍ لا نهاية لها من الوجع والخوف والقلق والحزن، رآني بهذا الموقف والمنظر المُرثي والمُثير للشفقة، لانَ قلبه ورَقَّ حين رآني بتلك الحالة التي يُرثى لها صرخ واغرورقت عيناه، بكى، كانت تلك أول مرةٍ أراه يبكي فيها، إحتضنتني والدتي ومسحت على جروحي، شعرت في تلك اللحظة أنني عدتُ طفلتهم الصغيرة طفلتهم التي يحبونها أكثر من كُل شيء ساعداني لأقف على قدمي، بدلت ملابسي وأحضرت لي والدتي كوبًا من الحليب الدافئ الذي تعده من روحها المسكوبة فيه كنت حزينةً لما مررت به

لكنني ما إن عدت لمنزلي للمنزل الذي كبرت فيه حتى هانت عليّ أوجاعي.

: سألقنه درسًا ذلك الوغد، كيف يفرط بابنتي، قرة عيني التي وضعتها أمانةً عنده، ووثقتُ بهِ كأنهُ ولدي وخان تلك الثقة.

: لا داعي لذلك يا أبي لأنني لن أعود له حتى لو فصلت رأسي عن جسدي، وحتى لو كلّفني الأمر أخذ روحي لن أعود لهُ، ولن أكون في عقدهِ بعد الآن..

العتاب دليلٌ على الرغبة بالبقاء، والشجار لتطهير الألم حتى نعود كسابق عهدنا، والرحيل الهادئ وداعٌ لا عودة فيه وبترٌ لمكان الألم بكامله عوضًا عن محاولة إصلاحه.

تلفظتُ حينها بحرقةٍ كانت لا تزالُ في داخلي وحزن توسدَ وجهي لأنني وبرغمِ كُل شيءٍ كنتُ متعبةً مُنهكة، لا أقوى على شيءٍ حتى على نفسي، مُثقله من كُل جسدي الذي لا يقوى حتى على الحراك.

حين قلت تلك الكلمات لوالدي صمت وذهب باتجاه غرفته ولم تنقضِ ربع ساعة حتى عاد ليخبرني بأنه معي وخلفي وسيدعمني بأيّ قرارٍ سأتخذه.. شعرتُ حينها بالنصر،

ارتحتُ قليلاً فوالدي اليومُ في صفِي، والآن يمكنني رمي ثُقلي على كتفيه لأن هناكَ من سينصُرني ويدعمني بعد أنْ بقيتُ ليالٍ كثيرةٍ أدعو بوجعٍ، وتختلطُ دعواتي ببكائي أن تنقشعَ عني غمامةَ الألم والمعاناة، كنتُ أداوي جراحي بآياتِ القرآن وسرعانَ ماتبثُ في قلبي السكينة، إنَّ الحياةَ بتعبِها وشقائِها وحُزنها وكبدِها، سنة اللهِ لندركَ بأنها دارٌ فانية، وإنَّما العيش عيشُ الآخرة، واليوم باتت دعواتي محققة، وفُتحَ باب للفرج، للخلاصِ من كل شيء ولاحت أمامي كُلِّ أحلامي وكأنها تخبرني أنها تحررت قبل أن أتحرر من قيود ناصر.

في اليوم التالي ذهب والدي ليقنع ناصر بالطلاق دون أضرارٍ أو فضائح، لكنه رفض رفضًا قاطعًا واتهمني بشرفي وعفتي أمام والدي، ظلَّ يشتُم ويسب ولم يحترم حتى وجود والدي، الذي أعطاه كُلَّ الثقة والأمان في أن يحفظني ويصون وعدهُ لأبي ويوفي بالعهد الذي قطعهُ إيَّاه من قبل.

أدركت أنَّ إعطاء الشيء أكبرَ من حجمهِ ينقلبُ ضده، ويقلب كُلَّ موازينه، لرُبما تأخرت في أن أعلم هذه الحكمة ولكنَّها لقنتني درسًا لن انساهُ مدى الحياة.

عاد أبي وعلامات الخوف تدورُ بهِ، بخيبةٍ تُرسم في زوايا عينيه وهو يَنظر إليَّ خوفًا من أن يكون ماسمعه حقيقة!

: هل ما أخبرني به حقيقي؟

اجبته باكيةً وبالرغمِ من ذلك الشعور الذي ينخرُ فؤادي ببطء، إلَّا أن ثمةَ حقيقة لم يختارها والدي من قبل.

: أقسم لك إنّه يكذب، أنت تعرفني يا أبي أنت من ربيتني، بهاتيّن اليدين التي لم ولن أخونهما ماحييت، أنت الذي جعلت القرآن منهجًا لي أتّبعه أنت الذي تعلم كل تفاصيلي حتى التي لا أعلمها أنا، ثق بتربيتك يا أبي ولا تثق برجلٍ عرفتهُ البارحة وخان أمانتك التي لم أخنها طوال حياتي الصغيرة.

استمر ناصر في إرسال الخيبات إليّ حتى ونحن بمسافات بعيدة ورغم كُلِّ مافعله لم يكتفِ، بينما أستطاع قولها في وجهِ والدي دون إدراك لخطورة مايقوله، تساءلت حِينها أكانت شكوكُه التي حولته إلى ذئبٍ بشريٍ متوحش؟

خلال الأيام القليلة التي مضت معه شاهدت حنانه على والدايهِ واهتمامِه المفرط بهما، لينُ حديثه مع الآخرين وتعاملهُ اللبق، ولكن لا أستطيع تبرير همجيته المستمرة نحوي، وجرحي بطريقة مهينة، لم يكن ذلك سببًا كافيًا لأفعالهِ تلك.

خرج والدي بعدها ليتواصل بمحامٍ جيد، ورفع عليه قضية تعنيف وخلع، مرت ثلاثة أيام سريعة كسرعةِ البرق لم أتوقع أنَّ أحدًا سيكون بهذهِ القسوة.

يالسعادتي لتحرري من ذلك القفص وشعوري بأن الحياة ستضحكُ في وجهي بينما تفسحُ لي الطريق مرةً أخرى لنيلِ أحلامي، الآن فقط سأعود كما كنت الآن فقط سأحلق في السماء عاليًا، وسأعيش حياتي لأحلامي وطموحاتي التي أسعى جاهدة لتحقيقها.

"المحكمة"

صباح اليوم المنتظر، استيقظت مبكرة صليت صلاتي أودعت الله همومي ووكلته أمري، تجهزت ووالديّ وذهبنا للمحكمة.

وبرغم طمأنينتي زار القلقُ قلبي وانتابني الخوف حينها ما الذي سيحدث؟ وكيف ستؤلُ الأمور؟.

عند باب المحكمة رأيت ناصر بوجه منطفئ..

(ماينبغي عليّ قوله أن ناصر لم يكن سيئًا في قرارةِ نفسه ولم يكن داخله يحمل الشر كثيرًا فكلنا في دواخلنا هنالك فسيلةٌ من الخير مزروعة، وفسيلةٌ من الشر لكن الشخص يصبح خيرًا أو شريرًا إعتمادًا على الغرسة التي سقاها ونماها، وكان كذلك متأثرًا بمجتمعنا المُتعب لنا ومعتقداتنا المتداولة، وأشياءٍ وأشياء لا يستوعبها عقلٌ سليم).

دخلنا للمرافعة وجلس كُلٍّ منا في مكانه، ساد الصمت للحظات وقلوبنا لم تهدأ طبولها كأنها تزف الخوف إلينا عروسةً منتظرة إلى الموت حاضرة، دخل القاضي ووقفنا إحترمًا له حتى أذن لنا بالجلوس بعد جلوسه، نظر إلينا برهةً من الوقت كأنهُ ينظر من منا يريد البدء.

بدأ محامي ناصر، قائلاً: سيدي القاضي أنهم اتهموا موكلي بالتعنيف الجسدي ويريدونه أن يُطلِّق زوجته، ولكن موكلي ينفي كُلّ ذلك، قائلاً أنه لم يفعل بها شيئًا إلَّا ماكان لكُلِّ زوجٍ أن يطلبه من زوجته وبالمقابل هي تمنعه وبعد المحاولة دخل بها ليجدها ليست بكرًا.

ومن خلال ذلك فموكلي يطلب من عدالتكم الحكم له بالمهر المقدم الذي دفعه وتكاليف الزواج التي تكبدها؛ لأن ياسمين ليست بكرًا كما يدعون.

رد محاميٍّ: سيدي القاضي، ما رفعنا عليه القضية بتهمه ناصر صحيح، وكُلّ الآثار والندوب التي على جسم موكلتي تحكي القصة وما فيها من حقيقة، وفوق تهمه التعنيف الجسدي اتهمها بعفتها وشرفها.

استمع القاضي لكُلٍّ منهما بآذانٍ صاغية وعقلٍ منتبه، في تلك اللحظة جمدت قلقًا وخوفًا من أن تؤول الأمور إلى عكس ما نأمل بالرغم من ثقتي بالله ونفسي إلَّا أنني تأثرت من القلق والخوف المحيطان بي حتى أيقظ محامي ناصر تفكيري وكسر صمت الأفواه والجدران، بقوله:

سيدي القاضي إن مايدعونه من العنف والتعنيف ليس صحيحًا وأنا انكره جملة وتفصيلاً،

واما ما قالوه بشأن إتهام موكلي لها بعفتها وشرفها، فنعم فلقد دخلت عليها بالقوة بعد التمنع والممانعة والصد ولكنه وجدها ليست عذراء.

رد محاميّ: حضرة القاضي نطلب مهلة إلى الجلسةِ القادمة حتى ناخذ تقريرًا من الطب الشرعي أو طبيبةً مختصة.

أطرق القاضي بمطرقته وأعلن تأجيل الجلسة إلى الأسبوع القادم وأنها ستكون هناك مناقشة مع محامي المدعى عليه (ناصر).

انتهت الجلسة وطلب منا المحامي تقريرًا فمررنا بمشفى، وقطعت ورقة الدخول وجلست أنتظر الدور.

مرت ساعة ونصف على انتظاري حتى سمعت اسمي ينادى به دخلت للطبيبة برفقة والدتي وأنا ارتجف خوفًا لكنني حاولت التماسك ما استطعت حتى تخلص من هذه المعاناة، كان عليَّ إتخاذ خطوةٍ صعبة كهذه لأجل أن أثبت برائتي وأنفي ما أتهمتُ بهِ باطلاً.

الطبيبة:

تفضلي يا سيدتي.

كانت تحدث والدتي حتى أخبرتها أنني أنا من دخلت للكشف استغربت صغر سني، وشكلي ولكنها تداركت مشاعرها سريعًا وسألتني ماذا تشتكين ياعزيزتي؟

: ليس بي شيءٌ الحمدلله لكنني..

توقفتُ لحظتها لفرطِ خجلي بالبوح.

: تفضلي أنا أسمعكِ.

:تزوجت وحين تمت العلاقة بيننا لسببٍ أجهله هو الآن يتهمني بأنني لست عذراء ولست فتاة بشرف.

: حسنًا عزيزتي لا داعي للقلق تفضلي معي لسرير الكشف.

كنت أبكي حينها، البكاء المكبوت في داخلي.

ما الذي أعيشه لتبرئة ذنبٍ لم أقترفه؟

كان عليَّ حتى اليوم فعل اشياءٍ صعبة.

بعد إنتهاء الكشف عدنا للطاولة حيث تنتظرني والدتي بحزنٍ شديد يطفو على بحار عيناها الجميلة مسكت يدها مطمأنةً لها لأنني أدرك أن هناك سببًا لا نعلمهُ.

حين نحزن نحن الأبناء تعيش أمهاتنا ضعف ذلك الحزن، يلقين اللوم على أنفسهن بطريقةٍ تشعرك بحب الأم وقلبها الذي لا يوجد عند أحد، يربطن كل مصائبنا بطريقة عجيبة

بأنهن هن السبب، لكن يبقى قلب الام عظيمًا مهما فعل الزمان بهم.

قلت بصوتٍ يرتعش كمتشردٍ في زقاق الشوارع في برودة شهر يناير لايملك مايغطي به جسده المنهك.

: طمئنيني.

: لا يوجد شيءٌ يدعو للخوف هدأي من روعك.

لكن جسدك يا ياسمين تعرض للعنف أو بعبارةٍ أصح لقد تعرضتي للإغتصاب هل ذلك صحيح؟

هززت رأسي موافقةً إياها بعد أن رأت وشخصتْ ما عانيتهُ وعشته.

لكن دعيني أشرح لكما سبب إتهام زوجكِ لكِ.

تلفظت الطبيبة بحنان وثقة جعلتني اطمئن.

قلت مقاطعةً إياها: هل يمكنني استدعاء والدي قبل أن تبدأي ليسمع ذلك فأخبرتني أن لا بأس في ذلك، خرجتُ كطفلة تريد والدها أن يسمع خبر نجاحها، وشيء كهذا يحقُ له أن يعلم بهِ ليطمئن.

عدت مع والدي ثم بدأت الطبيبة بالحديث بعد طلبها منا عدم مقاطعتها.

غشاء البكارة لدى الفتاة في مجتمعنا متعارفٌ بأنه يدل على عذرية الفتاة لكن ما لا يعرفه إلا القليل أن هنالك نوعٌ مختلف وهو الغشاء المطاطي.

ثم أخذت تشرح لنا كمدرس في الصف وكل طلابه مهتمون بالدرس جيدًا

هنالك نوع يسمى المطاطي،

لا يمتلكُ غشاءُ البكارة المطاطي أي تعصيب (تزويد بالأعصاب). بعد أول علاقة بين الزوجين في العادة يتمزق الغشاء أما في المطاطي يتوسع مع الحزق و لكن بعد عدة دقائق يعود.

فيشبهه الكثير من الأطباء بالستائر فهو مع الضغط الشديد يتنحى جانبًا ثم بعد الإنتهاء يعود لوضعه.

في بعض المجتمعات إذا حدث النزيف في ليلة الدخلة فهي عذراء، ولكن عدم حدوث النزيف لا يعني أنها غير عذراء أيضًا وهذا ما لايعرفه الكثير فقد يكون الغشاء مطاطيًا، أو رقيقًا ولا يحتوي على كمية كافية من الأوعية الدموية أو يكون الغشاء قد تمزق في الطفولة وبدون علم، أو يكون الغشاء غير موجود خَلقيًا.

قاطعها أبي قائلاً: ماحالة ابنتي إذًا؟

: إنها بغشاءٍ مطاطي.

حسنٌ سأحاول التبسيط أكثر ليتسنى لكم الفهم.

غشاء البكارة المطاطي هو بكل بساطة غشاء مكتمل لكن به الأليف مطاطية بنسبة أكثر من الطبيعي. فلا يخترق بل يمط تحت الضغط. يمكن فضه جراحيًا لكنه ليس له أي أضرار في التزاوج أو حتى الولادة،

حيث أن الغشاء المطاطي، يمكن فيه أن تتم العلاقة الزوجية حتى تنتهي دون قطع أنسجته، و هذا النوع لا ينفض إلا عند الولادة الطبيبعي، أو التدخل الجراحي وذلك لإنه يسبب ألمًا شديدًا لدى بعض الفتيات أثناء العلاقة.

ثم إن كل هذا الحديث لا داعي له حيث أن هذه معتقداتٌ خاطئة وكم من البيوت دمرت وكم من الزيجات تدهورت لهذا السبب، ولعلمكم فإن نظرة الإسلام لهذا الغشاء يختلف تمامًا عن المفاهيم الضيقة، ذلك أن الله عز وجل خلق غشاء البكارة كحاجز طبيعي يمنع دخول ما يمكن أن يشكل خطرًا على أهم جهاز لدى المرأة، وهو الجهاز التناسلي، وهي نعمة من الله.

فلا داعي للقلق والخوف ياسمين عذراء.

مع كل كلمةٍ كانت تقولها كنت أشعر بالإرتياح كنت أشعر بأن جبالاً تتساقط من على أكتافي كنت أشعر بأنني أحلق عاليًا بدون قيود تكبلني اليوم أدركت أن بعد الحزن فرح والضيقُ والهّمُ يعقبهما فرج.

مر أسبوع من استلام نتيجة تقرير الفحص الطبي، أصبح كُلِّ شيءٍ بين أيدينا واضحًا لنُثبت عكس التُهم التي اتهمنا بها ناصر وأهله والمجتمع الذي لا يفقهه شيء، ذهب القلق والخوف من أن نخسر القضية ويفوز بها من أتعبني وأرهقني واتهمني بشرفي وعفتي؛ فمفتاح البراءة بين أيدينا والنصر آتٍ لامحالة.

قدم محاميّ تقرير الفحص إلى المحكمة لينظر له القاضي ويكون على بيّنه في أمر الحكم، وليكن هو الدليل الذي تلوى بهِ ذراع محامي ناصر ويفضّحُ عن جريمة موكله، جاء يوم جلسة المناقشة مع محامي ناصر، في (قاعة المحكمة) خلا كُلّ شائب وبقى الجدُّ في وجهِ القاضي يصارع الأركان، والتساؤلات تقذفُ نفسها من فاه ليحصر بها تشتته، والحيَّل تتضارب في رأس المحامي تريد مخرجًا صادقًا تكسب بها القاضي في صفها، غريزة الشر في النفوس الضعيفة أقوى جشعًا من النفوس القوية النقيّة.

: هل ما اتهم بهِ موكلك زوجته صحيح؟

: لا سيدي ليس صحيحًا، موكلي أخبرني أنها دائمًا تصدّهُ عندما يريد أن يتشاركا معًا علاقة زوجية، واستنتج من ذلك أنها ما تصدّهُ إلَّا لأن أحدًا قبلهُ قد لمسها، ولأن رفضها المستمر غير مبرر لسببٍ أخر.

: خُذ، هذه صورة من تقرير الفحص الطبي الذي أجرته الطبيبة النسائية لزوجة موكلك، اطلّع عليهِ جيدًا وفكّر فيما أفصح عنه موكلك وما أخبرك به.

: حاضر سيدي القاضي

رفعت الجلسة.

تلى الأسبوع الماضي أسبوعًا أخرَ تُجدد فيه جلسات الاستماع (المناقشة)، وحضر كُلٌّ منهما وبدأ القاضي متحدثًا بشأن تقرير الفحص الطبي، ولكن محامي (ناصر) أصرّ على أن التقرير غير موثوق وأم هذه حيلة مدبرة كي نوقع موكله انتقامًا منا له،

فرد عليه القاضي، قائلاً:

: إذا كنت تشك في تقرير الفحص ومن عدم مصداقيته وعلى أنه زُوِّر كذبًا وبهتانًا، سأحدد طبيبة مختصة خاصة

لتقوم بالكشف عن زوجة موكلك مرة أخرى، وسيكون ذلك للأسبوع القادم.

سمعت الخبر مثل صاعقة وقعت على قلبي وكأن الدنيا دارت دورتها لما عشته من قبل، ربتت والدتي على ظهري أخذت تدعو لي بالقوة والثبات والتصبر وأن بعد العسر يأتي اليسر، وأخبرتني أنني لن أخسر شي إذا فحصت مرةً أخرى ما دمنا على دراية وبيّنة من أمرك فربكِ معكِ لا تخافي لن يختلف شيء هذه المرة حتى وإن اختلفت الطبيبة ستبقى الحقيقة ثابتة مثل ما أخبرتنا الطبيبة السابقة من قبل، وافقت على ما قُدِّر لي من قدر ورضيت به رضى العبد المكلول بعلله، بأمل ماكتبه ربهُ لهُ من خير.

ذهبت أنا ووالدتي إلى الطبيبة المختصة الذي حددها لي القاضي وبعد ربع ساعة نادتني مُرحبةً بي وجلستُ في سرير الفحص وأخذت تسألني عمَّا جرى لي وعن مشكلتني، نظرتُ إليها نظرة الحائر المسكين الذي لا يملك جوابًا ينفعه، فأخذت تفحصني وسردت ما أعانية، تسردُ المشكلة وكأنها الطبيبة الأولى بنسختها الثانية تحاكي نفس المشكلة التي فيّ وكيف أنهُ من الأمر الطبيعي الذي يجهله الكثير، فأخبرتني بأنَّ لا خوف علي ولا خطر، ذهبنا إلى البيت لنخبر والدي بما

جرى وأن لا خوف ولا قلق فالأمر طبيعي مثلما أخبرتنا الطبيبة الأولى وتقرير الفحص مطابق جدًا لنتيجة الفحص السابق.

سلّمت الطبيبة المختصة نتيجة تقرير الفحص إلى القاضي وطابقه مع الفحص السابق اتضح لهُ أنهُ كان مؤيدًا ومطابقًا لهُ بكُلِّ تفاصيله ولا يتخللهُ أي خطأ، وأعلن القاضي حجز القضية للحكم في الأسبوع القادم.

يوم الأحد بتاريخ 7. من ذلك الشهر، الذي سيحدد فيه القدر نصيبهُ لي، إنّ كان خيرًا وإنّ كان شر، اليوم الذي سينتهي فيهِ كُلِّ شي، ستغلق قضية ناصر من حياتي وسينتهي العذاب والدمار الذي سببهُ لي سينتهي كُلِّ شيءٍ كان السبب فيه إلَّا تِلك الندوب التي ستبقى عالقة في القلب قبل الجسد،

ذهبتُ أنا ووالداي إلى المحكمة استقبلنا المحامي مرحبًا بنا والأمل يشقُ وجهه في أننا سنربح هذه القضية، دخلنا إلى قاعة المحكمة، ودخل ناصر ومحاميه وأهله بعد ربع ساعة من دخولنا، دخل القاضي ووقفنا عند دخولهِ إلى أن طلب منّا الجلوس، قدم المحامي نتيجة تقرير الفحص الطبي وتبيّن أننا على حق وأنَّ ناصر كان على خطأ، نطق القاضي بالحكم مُعلنًا فيه

: على الزوج (ناصر) أن يطلق زوجته (ياسمين)؛ لأنهُ زوجٌ غير صالح ويقذفُ زوجتهُ بما لم تفعله وذلك لانعدام الثقة بينهما وتشويهًا لسمعتها واتهامها تُهمًا باطلة في شرفها وعفتها وعليهِ رد اعتبارٍ لأهل الزوجة بوصلة مشهورة لتبرئتها أمام الناس الذين شُوِّهت سمعتها أمامهم وكذلك عليهِ أن يدفع مليوني ﷼ تعويضًا لها عمَّا لحقها من ضرر مادي (ضربها) ومن ضرر معنوي (الإساءة لها) وطعن شرفها.

أعلن القاضي الحُكم وكأنهُ ثلجٌ أطفىء نار قلبي، حمدتُ الله كثيرًا وأيقنتُ أن ما بعد العُسر إلَّا يُسر هنأني كُلٌّ من والداي والمحامي وأخبرنا أنه يمكننا الرحيل الآن من دون قيود أخرى تقيّدني بناصر، خرجنا من القاعة وكُلٌّ منَّا كان يُهنىء الآخر لفوزنا بالقضية، لأول مره بعد الأيام العِجاف التي مررت بها تضحك لي الحياة مرةً أخرى، وأنني سأعيش بروحٍ أخرى لا تشبه سابقتها.

كان والدي تنم على وجهه فرحة يخالطها حزن بالرغم من أننا ربحنا القضية وثبتت برائتي إلَّا أنَّ الندم تسلل لقلب والدي ابتداءً من غصبِهِ لي على الزواج وانتهائه بطريقة سيئة، حتى وهو يحمل ورقة طلاقي من ناصر وتحرري من

العبودية له وخلاصي من كُلِّ تلك القيود وانتهاء معاناتي فرحت حينًا، وبكيت حينًا أخرى.

عندما تبكي الأنثى بعد علاقة هي من أرادت الخلاص منها فهي تبكي على نفسها، على قلبها الذي جُرح وروحها التي انتهكت وجسدها الذي تأذى وتضحياتها وصبرها على أشياء لا تحتمل.

تعلمتُ درسًا قاسيًا هذهِ المرة ومروري بتجربة صعبة ومُرَّة إلَّا أنها تركت فيَّ أشياء كثيرة، وهي أننا لا بُد وأن نتعلم ونستفيد، ألا نكتفي بمرحلةٍ معينة من العِلّم بل يجب أن نستمر في تحصيل المعلومات وأن فترة ما قبل الزواج هي فرصة لتدرك الأنثى طبيعة نفسها وتعلم الأمور التي تجهلها كي لا تتحول حياتها الزوجية في المستقبل إلى معاناة ومشاكل.

هذه التجربة علّمتني الكثير، جعلتني كأنني أكبرني بسنوات متقدمة، تعلمت منها أن لا استسلم وعلمتُ من بعدها أن الأحزان ابتلاءات من الله ليختبر صبرنا ويقيننا، وليعلم الإنسان بأن ماقدرهُ الله له خيرٌ مهما اختلف الشكل الذي أتى به، وأننا كما تمر بنا فصول السنة ستمر فصول الحياة لنتعلم أن بعد البكاء ضحك وبعد التعب راحة وبعد الاختبار مسرة، وأن مهما بلغت بنا الآلام، يجب أن لا ننسَ

رحمةَ الله ولطفِهِ بنا، وأن الأسباب لها مسببات أيضًا؛ فمهما بلغت منا يجب أن نترك اليأس وأن لا نترك التمسك بالأمل وأن لا نستسلم لمتاعب الحياة أبدًا.

وفي صباحية يوم الأربعاء من شهر أبريل، حيثُ السماء البهيّة والهادئة من كُلِّ شيءٍ يعكر صفو جمالها، مُنعشة بهوائها العليل ونسيمها البارد، وجبالها الثابتة المتمسكة بالأرضِ والحياة، كُلُّ شيءٍ كان ذا سكينة وثبات وهدوء، جلستُ أفكر مليًا كيف لكُلِّ هذه الأشياء أن تكون أكثرَ جمالاً بطبيعتها وبكينونتها الساحرة، وأنا عقلي تتضارب فيه الأفكار والأحداث، أخذتُ أتمتم في داخلي أنَّهُ عليّ نسيان ما قد مضى وأن لا أفكر فيه، سكتُّ لبرهةٍ من الزمن، حتى شردتُ في أفكاري، أفكر كيف لقلبٍ رقيقٍ مثل قلبي أن يتحمل كل هذا الكم من الوجع ويكابده، وأن يتصبّر على آلامه رُغم مشقةِ تحمُّلي له، كيف لقلبٍ أن يعتصر من الآهات على عِلله، ولا تداويهِ ضخةُ دمٍ منه، أتساءل كيف هدأت عاصفةُ الأحزان تِلك لتتحول إلى أمطار خيرٍ تزرعُ الأمل في داخلي حُبًّا للحياة؟!، أنقذني صوت الباب من فواجع الأفكار إلى قدرٍ محتوم.

: ياسمين تلقيت دعوةَ زفافٍ لإحدى قريباتي، وستذهبين معي لتخرجي من جوكِ القاتم إلى جوءٍ تنعشين فيهِ أفكارك وقلبك.

: حسنًا أمي.

لولا إصرار والدتي بضرورة الذهاب لما انشغلتُ عن التفكير وقضيت الوقت عواصف وبوارق تؤلم داخلي.

في الحقيقة لم أكن مهيأةً لحضور تجمع أو مناسبة كهذه،

كنتُ على دراية بأن اليوم لن يمر بسلام، وأن انتهاء زواجي خلال فترةٍ قصيرة سيكون محض إهتمامِ الكثيرات، تنفستُ بعمق بينما شرعتُ بارتداءِ ملابسٍ كُنت قد اقتنتيها سابقًا، ووضعتُ القليل من مساحيق التجميل تأملتُ نفسي برضاءٍ تام.

أخذنا والدي إلى صالة الزفاف وتنهدت حين رأيتُها مزدحمة مُكتظة بالحضور، كنتُ بجوارِ والدتي بينما تناوبت النساء على الثرثرة، عن صحةِ خبر طلاقي ومدى سرعتهُ، بينما يتصنعن الحزن والشفقة عليّ،

جذبني صوتٌ مألوفٌ كان لابنة خالتي، سلمنا على بعضِنا وكان هناك كلام على طرفِ لسانها وكنت اعلمهُ جيدًا.

: وصل لنا خبر طلاقكِ يا عزيزتي، ولكنكِ حقًا شجاعة لحضورِ الزفاف وطلاقكِ كان منذُ بضعةِ أيام ألستِ حزينة أو ما شابه؟

اتساءل عن السبب الذي جعل زواجكِ ينتهي بهذهِ الطريقة.

تسربت إلي نبرتُها المستفزة أجبتُها وأنا أنظرُ في عينيها نظرةً لا حُزن فيها عمَّا مضى.

: لا لستُ حزينة ولا أخجل لأنهُ لا يوجد سبب لأكون كذلك،

وطلاقي كان كأي علاقة تنتهي، ولا داعي لاخباركِ عن أي أسباب، إضافة لكونها حياتي الخاصة التي لايحق لكِ الاستفسار عنها أو التدخل بها.

كنتُ مستاءة من استمرارهن في التساؤلات والتدخلُ في ما لا يعنيهن.

: لِمَ كُل هذهِ الحدة؟، الجميعُ يعلم أنَّكِ المخطئة وانتهاء زواجكِ كان لسبب تعلمينه جيدًا انظري لنفسكِ ياسمين مثيرة للإشمئزاز، هل هذا شُكل أنثى في مقتبلِ عُمرها؟ ماذا سيقلن عنكِ النساء، فتاة ترتدي ملابسًا لا ترتديها سوى العجائز أجزمُ أنكِ لا تعرفين شيئًا عن الموضة والتزين أنصحكِ

بمتابعةِ الموضة لتتعلمي كيف تأتي الأنثى بزينة تناسبُ العصر المتقدم.

أنهالت عليَّ بكلماتها الساخرة بينما تشيرُ نحوي ضاحكة، لم تدرك حينها كم آلمتني وأثارت غضبي.

: بل أنتِ من يجب أن تنظرُ لنفسها وما ترتدينه ليست بملابس!.. تكشفُ أكثر مما تخفي، ربما لأنكِ غافلةً عن لباسِ المرأة حتى وإن كانت بين النساء ذلك لا يمحو حقيقة أن الموضة هذهِ الأيام تجردُ الكثيرات من حيائهن وتدعوهن لاتباعِها ظنًا بأنها من تجملُهن وأنتِ أيضًا نسيتِ أنكِ صنفٌ من نساءِ النار الكاسياتِ العاريات، وأنا راضية جدًا عن نفسي وعدم انجرافي خلف موضات تجرُّ بي للهلاك وكشف تفاصيل لا يجوز كشفها.

تنهدت وأنا أبتعدُ عنها، لم تكن المرةُ الأولى لانتقادي، وذلك لأن الغفلة أصبحت كثيرة بينما تتصدرُ الموضات،

وتتجدد مما يغرسُ في عقول الكثيرات أن الملابس الضيقة والعارية هي من تجعلهن جميلاتٍ أنيقات.

استمعتُ إلى الكثير من الكلمات السيئة والنقاش اللئيم عن كوني لم أكن شريفة وذلك السبب الذي عدتُ بهِ أحمل لقب مطلقة،

لم ينتهِ اليوم بسرعة كانت الساعات تمر فوق قلبي ببطء، كان يجبُ عليَّ الصبر وتجاهل النظرات المقيتة، وأحاديث الفتيات وكأنهن كن ينتظرن قدومي لجرحي واتهامي وتشويهِ سمعتي، طلاقي كان سببًل لتداولِ الأقاويل دون مبالاة إن كانت صادقة أم كاذبة.

: يا ياسمين.

: نعم يا أسماء.

يبدو أنّكِ شاردة الذهن والفكر، ما الذي يجول في خاطرك؟، هل هناك ثمّة أمر يُقلقك أم أنك انزعجتي من كلام البنات عنكِ؟

: نعم يا أسماء، انزعجت وفي ذهني تتراود تساؤلات متواكبة مع الحقائق التي أكتشفها يومًا بعد يوم، للمواقف الحياتية المعاصرة حول ظُلم وقمع الأنثى والطّعن بسمعتها، وبعرضها وسمعة منهم على شاكلتي (المُطلقة).

فلماذا الأشخاص البُسطاء، أنقياء القلوب، العفويون، الذين يحجبون أعينهم عن خصوصية الآخرين، ويدركون أنهم لا شأن لهم فيها، ولا يفكروا سوى بمستقبلهم، وكيف ينحتون رغد عيشهم بسلامٍ واطمئنان، هم أكثر عرضة للحقد والحسد والملاحقة لتشويه سمعتهم؟..

لِمَ لا ينشغل الناس بحياتهم كما يجب عليهم؟ ويهتدون بالنّهج العقلي النّاضج، ويكفّون عن أذية الناس والتمادي في اتباع وهم أفكارهم الدّنيئة؟

: يا ياسمين نحنُ في محيط متفاوت الشّخصيات داخل الحياة وخارجها، وهؤلاء الفئة من البنات يشكلن الجانب السّلبي لحياتنا لا يبالين بمترسخات حياتهن، بل يهرعن للتدخل بشوؤن الآخرين بدلاً من إصلاح شؤونهن، يحاولن أن يلتقطن قشة عيب فينا ليقدمنها على طبقٍ من الشّتائم وترويجًا للأكاذيب.

فهذه طبيعة الأنفس تنساق خلف ما تهوى، فإما تنشغل بجبلها واستئثارها، أو تنقاد وراء ظُلمة الوسوسة، والتّخيلات المغرية بملذات الحقد والحسد!

: لكن يا أسماء لا أحب أن ألبس ملابسًا أشعر بأنني لستُ راضيةً بها، مالي وللموضة؟ ومالي وللمواكبة والتطور؟

للتطور سلبياته كما لهُ إيجابياته، لماذا نأخذ السلبيات ونترك الإيجابيات؟!

أتعلمين يا أسماء إنّنا نشهد اليوم عبث التّصرفات، والزيف، وقلة الوعي، والانجرار خلف ثقافة الغرب، وانتشار اللاعقلانية.

فعندما نبحث عن أشباهنا في الأمور التي نتفق عليها، جميعنا فتيات اليوم ونتخذه مبدأً لنا، نجد نسبة التواجد ضئيلة.. وأصبح واقعنا المألوف مُخالف جذريًا لكل ما هو ضروري وإلزامي في حَياة الفتاة.

إذ لا أحد ينكر ما تراه عيناه لفتيات اليوم، خاصّة المُراهقات فهُنّ أكثرهُنّ ضياعًا.

: ماذا تقصدين يا ياسمين؟.

: أقصد يا أسماء بأن الكثير من الفتيات في بداية بُلوغهن، وحيوية شبابهن، ينطلقن بكلِّ معاني الحُرية والأناقة بطريقة خاطئة بعيدةٍ تمامًا عن هذهِ المفاهيم.

حيث البّعض منهن، تظهر بوجهها بشكلِ امرأة لا فتاة من فرطِ المُستحضرات التجميليّة، والبعض الآخر من لباسهن الضّيق والمُلون، وتضييق الحِجاب بحيث يصف مفاتنهن بشكلٍ بارز، والبعض مِن أصواتهن العاليّة، ورنين قهقاتهن، وروائحهن الزّكية الفواحة، لا سيما صَوتَ الكعب ورنات الهاتف.

: لكن هذه صفات الأنوثة يا ياسمين والأناقة والحرية والموضة!.

: لا يا أسماء وهل كُل هذا يعد مِن صِفات الأنوثة، وسمات الأناقة وشِعار الموضة؟

لا... بل يعدُ إظهارًا لمستواكِ الثّري، والتّباهي بحياتك الفارهة، ودلع والديكِ لكِ وإعطائهم الحرية المُطلقة لصناعة ما تُريدين؟

حقيقةً يا أسماء.. أنا أجدُ من خروج الفتاة بهذا المظهر، وبهذهِ المُبالغة دليل خللٍ ما، خلل في الأولويّات، والحقيقة هي عبارة عن حالة تعويض فقدان الحياة الطَبيعيّة، إناثٌ مهتمّاتٍ بالمظهر أكثر من الجوهر! يُبالغن إلىٰ حدِّ الشفقة..

من دَسّ فِكرة أنّه من لوازم الأنوثة معرفتك بكلِّ صَيحات الموضة، وشرائك لجميع المَساحيق والأحذية، حتىٰ باتت ركيزة أساسية لا تتنازلين عنها؟

هوسك بالمظهر والجماليّات كونها من "الأنوثة" ليس سوىٰ خللٍ في المفهوم، كيف اقتنعتِ فعليًّا أنّ أنوثتك في هذهِ الكماليّات لدرجة أن تحوليها لأولويّات هامّة تفوق الحقوق والِفكر والحُريَّة؟

إنّ تصرفاتك تلك ليست دليلاً علىٰ الأناقة ولا على الحُرية أيضًا، وإنما للفت الإنتباه وجذب أنظار من حولك سِيما الشَباب..

فلماذا هذا التّفكير، ولماذا هذه التّبعية، والخضوع وسُهولة الميل؟

: أحببتُ تفكيرك يا ياسمين.

: ألم تعلمي يا أسماء بأن بعض الشباب الذي يلتفت لها، يستهين بها من الداخل ولا ينظر لها كفتاةٍ لائقةٍ بأن تكون شريكته في الحياة، بل يراها سهلة المَنال.. وفي متناول الجَميع!

.. فِكرة مُقززة صَحيح؟

حتى الفتاة التي تمدحك وتعجب بأناقتك لا تتوقعي بأنها ترجو الخير لكِ، فأنا لا أتوقع بأنكِ تجهلين هذه المعلومة وإنما خفة عَقل، وغُرور لايزيدك إلا دمارًا.

: وما الحل برأيك يا ياسمين؟

الحل يا أسماء أن نعلم بأن الأنوثة لا ترتبط بالشكليات والقشور، تحرري من هذا المَفهوم.

لا تلهثي وراء الكَمال الشكلي، هذا الكَمال مُمل وغير حقيقيّ.. أنوثتك وأناقتك في بساطتك، الجَمال الباهرة- التحرر- ثقافة مُعوجة صنعتها مواقع التواصل الإجتماعي..

نحنُ نريد الحَقيقة، نريد أن نرىٰ الحِشمة والحَياء اللذان انطمسا بسبب أكاذيب المَوضة، نريد أن نتميّز بأشياء خاصة تُشبهنا.

للأنوثة مفهوم شاسع بعيدًا عن سطحيتهم، فهي تكمن في الصِّدق، في انتهاج أسلوب حياة سويّ، في فكر مغاير، في إنجاز يُشبهك، في الإستمتاع بتفاصيل أشيائك.

: ماذا تحبي أنتِ يا ياسمين؟

: شخصيًا، أنت أحب الأناقة لا العشوائية، أحبُ الاهتمام لا الإهمال، أحب أن أظهر بشخصية أنيقة، مرتبة، نظيفة، وأن تكون خطواتي مليئة بالثقة.

ولكن ليس لدرجة أن أعلن حُريتي أو أتحرر مِن العادات وأنسى حشمتي، أو أظهر مستوانا المعيشيّ بأسلوبٍ غير لائق، وبمظهر يكثر من الأقاويل السّيئة عن شخصيتي ممّا يؤدي إلى مسِّ عِرض أهلي وشتمهم بسبب إهمالهم لي وتقصيرهم في تربيتي، وَعدم اكتراثهم للكيفية التي أظهر بها أمام الآخرين والمارّة..

: تعلمين شيئًا يا أسماء؟

يحزنني جدًا أمر هذا الانفلات المسمى بالحُريَّة الشخصية، وبالتبرُّج العاري الذي لا يستُر ولا يُغطي، يحزنني أن مفهوم الحريَّة الشخصيّة مفهوم بشكلٍ خاطئ تمامًا عن حقيقة ما يكنّهُ هذا المفهوم، إنَّ هذهِ المَشاهد التي نراها إن دلت على شيء فإنما تدل على غياب دور الوالدين في التربية، وعدم مشاهدتهم لِبناتهم وهنّ يخرجن متبرجات.

وأحبُّ أن أقدم لهم هذه الرسالة الصغيرة:

«علموا بناتكم الحِشمة والحياء، وكَيف يحافظن على أنفسهن، عوضًا عن ملء وجوههن الصغير الذي لا يتسع لِكل هذهِ المَساحيق، وأن لا يبرزن شخصيتهن في الشوراع والمُتنزّهات بحركاتٍ غير لائقة..

هل ترضون أن يصبحن لُقمة سائغة لبعض الذِّئاب البشريّة؟

أنقذوا أدمغتهن المَحشوة بمفاهيمٍ خاطئة، أنقذوهن من الضّياع، وَمِن إهمالكم!»

أتيتُ من الزواج وجلستُ مع نفسي أداريها من هذا الهم القاتم، أنظرُ إلى السماء الهادئة وفي داخلي ضجيجُ العالم بأكمله، متعجبة من عقلياتهم الدسمة وتفكيرهم الأعوج، وأن كيف يفهم الأشخاص معنى الحرية بهذا الشكل، لم ينتهِ الضجيج عند هذا الحد، بل زادني همًا وحزنًا على نفسي وأحلامي التي قتلتها الظروف، أخذتْ نفسي تحادثني وتبوح لي علّها تُخفف الضجيج بكلماتٍ تُحرر الهدوء الذي يسكنها.

حسدني الآخرون ظنًا منهم بأنني اتخذت القرار الصحيح، وأن بيت الزوجية الذي كنتُ أقطن فيه تملؤه السعادة والهناء في حين أني كنت أعاني أيّما معاناة وأتثبت بالصبر على ما ألقاه من تقصير في حقوقي وشحٍّ في الحُب والعاطفة تجاهي؛ بل حتى الرحمة التي تتسع لها كل القلوب ضاق قلبه عنها، كل ما أجده هي الطباع العصيبة على الفهم والتقبل فلا عجب إذًا إن ماتت الألفة.

أصاب روحي الخواء حتى أخذتُ أبحث عن ما يشبع حواسي لتعويض نضوبي الداخلي فلم أجد إلَّا مزيدًا من النضوب المادي زادت فوق الألم ألمًا.

حُكِمَ عليّ بالشقاء في هذه الحياة وأنا التي عوّلت على الحياة لتأخذ حقي فضاع مني أبسطها، لم يعد بوسعي إلَّا الاتكاء على حزني واحتساء مرارة الألم، لا عضد أشد بهِ أزري ولا جذع استند إليه، أصبحت أنا الجذع والمتكئ، لا خيار أمامي إلَّا أن أواصل الوقوف؛ وإذا أردت أن أواصل في هذه الحياة البائسة إما أن أبتلع غصّتي وأدّعي بأنني أعيش في بيتٍ لا غياب فيه لأحد الأركان، أو أقرر أن آخذ حقي من الحياة وأقطع ميثاقنا الغليظ، بالرغم من أني أعلم مسبقًا كيف ستكون ردة فعل مجتمعي الذي سينظر إليّ كغيري من المطلقات بنظرة إزدراء وإحتقار ويلقي عليّ وابلاً من اللوم، رغم جهلهم بحقيقة الأمر، كُل ما يعلمونه هو أن المرأة مخطئة حين تقرر ألا تستمر في مهزلة الزواج، الجميع يطلق الأحكام ويطرب على سيرتي كُلَّما هُزت أوتار العود.. فإما أن أصبر على حياتي وأمتهن العمى واللاشعور، أو أكسر قيد الخوف من آراء المجتمع بي وثرثرتهم التي لا حدّ لها.

إنها لشجاعة مني أني أتخذتُ قرارًا بالانفصال، هناك الكثيرات غيري لم يَتَجَرّأنَ على هذه الخطوة، فيضطررن أن يصبرن على معاناتهن ولسان حالهنّ يصرخُ قائلاً: لا أستطيع مواجهة الآخرين، ولا أملك إجابات لأسئلتهم التي لا حق لهم في طرحها، حتى لو أجبتهم لما فهموا أننا لا يمكن أن نجتمع تحت رابطة الزواج وأن اختلافنا لا يولِّد إلا تنافرًا.

لست أدعو النساء إلى هدم بيوتهن وإلى الانفصال البغيض، لكن الله لا يرضى لنا أن نحزن، "وحياةٌ لا عيش فيها أولى بالترك"، وخزينة الإنسان من الصبر قد تُنفد، والقدرةُ على التحمل تلزم آدمَ وضلعَه الأعوج، هكذا استقامت بيوت و دامت علاقات. طرفاها يرى كلٌ منهما عيوبَ الآخر فيتعامى عنها، ما دام أثرها لا يتعدى إلى الآخر.

فأي عقل يقبل أن تسكت المرأة عما تتعرض له من ذل وامتهان للكرامة وتعنيف جسدي وروحي من قِبل زوج لئيم؟

ولن ترضى امرأة لنفسها هذا الهوان إلا إذا عميت بصيرتها وسارت خلف المُنى الضالّة التي تخبرها أنه سيتغير مستقبلاً، فتُمضي الحياةَ على هذا الأمل، وتنسى حقها المسلوب بكل رضا.

لا عيب أن تطلب حقها تمامًا كما تعطي هي صاحب الحق ما له، وأن تختار أن تكون مطلقةً على أن تضيع حقوقها أو تُمتهن كرامتها، فللمطلقة مكانة رفيعة ولها كرامة محفوظة وحق يجب أن يؤدى، وليست بأقل من غيرها، فمحمد الرسول الكريم تزوج من المطلقة، والأرملة، والبكر وهو سيد العالمين.

فعلامَ يستعظم أحد العالمين نفسه ويستحقر المطلقة، ويحكم عليها بالفشل في الحفاظ على بيتها وانتشاله من التهالك؟

كم أبدو ساذِجةً حين أظُن أنّ الجميع تفكيرهم مستقيم، تفكير لا إعوجاج فيه.

أدركت أن نوايا النّاس تتفاوت وأنا لا أراهم إلا بعين نيتي أنا.

أتعجب من حالي ومن كوني طفلة لم تبلغ سن الرشد تَعي مفاهيم الحياة ومبادئها، فأسألُ نفسي غرابةً لحالهم؟

كيف لهم أن يفكروا هكذا، أليس بقلوبهم إنسانية، ألا يعرفون مصطلح الطيبة؟، ألا يدركون معنى "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"؟

فما الذي يحدث، ما الذي نجنيه من هذه الطيبة؟

ما الدروس التي تُلقننا، وماهيّ العبر لنا،

أصبحوا كأرضٍ جدباء مليئة بالأشواك، أصبحوا يصفقون للحثّالة تشجيعًا لهم ويقتلون المتأدب حقارةً لأدبه،

أُغرِموا بالصفات الحسنة ولم يستطيعوا ترجمتها لأفعال الحق؛ لم يقتلوا سواد النوايا بسجية الأخلاق، بل أعطوا للقرين استراتيجية خروجه.

هيهات لنشواتٍ قوامها ركيك، تطبيقها داء، أتذمّر لسماعها فكيف تجسيدها بي.

صحوت من هواجيسي الهادجة لقول أمي:

يا ابنتي،

كل نفس بعين نيتها بصيرة، لن تستطيعي قيادتهم لدربك، حتّى يدركوا بشّاعة أفعالهم بعد أن يتجرعوا مرارتها، ولا يمكن لكِ أن تبسطي لهم حياتكِ ليتلاعبوا بها كوني أنتِ من يقود نفسكِ وحياتكِ لا غيركِ.

عقد الموت

لَطالما آمنت أن القَيود لا بُد أن تكسر، وأن الجَهل لا يَجب أن يَعيش في داخلنا إطلاقًا، وأن الخُطوة الأولى تَعني بدايةُ تحرر نفسٍ من عبوديةٍ لا تُطاق، وانْحلالُ عقدٍ، إن فُكَ لايعود.

إلى من أُلبسنَ عقدًا من عارٍ، وجهل، وموتٍ، وخيبة تُعيق فيهنَّ البدء أبدًا، إلى من عرفنَ المعنى يَقينًا، والصوت آمينًا، وصلينَ لأجلِ غدٍ أكثرَ إشراقًا وإيناسًا، وحملن جُرحًا غائرًا حتى وإن جَفَّ لا يُبرى.

أُهديكن جميعًا هذا العَمل،
وأهديهِ لنا أيضًا؛ لأننا مسؤولين عن رصّ خرز هذا العقد، وتحويله إلى قيدٍ، بطريقةٍ أو بأخرى.

فكري محمد الخالد

NBC
نعمة الخالد لتصميم أغلفة الكتب
@n_b_cover | ne_alkhalid

منشورات الواحة